روايات عبير

الهروب إلى العذاب

www.elromancia.com

مزمورية

No. 068

روايات عبير

الهروب إلى العذاب

◆ عندما تخرجت (جولى) من الجامعة .. أرادت الخالة (برجيت) أن تقدم لها هدية.. فأشارت عليها أن تذهب فى رحلة لمدة أسبوعين تتكفل هى بكل نفقاتها . وكانت حكمتها فى ذلك أن تستمتع الفتاة بوقتها .. وأن تفكر هى منفردة فى قرار يخص علاقتها بـ (جون).. الذى ارتبط معها بذكريات الطفولة ولكنها لم تكن تشعر نحوه بالحب.

عندئذ أخرجت جولى رغبة حبيسة عندها منذ زمن، فى زيارة أرض الأجداد .. وهناك التقت بـ (ستيف) الذى وقف إلى جانبها وساعدها. ثم حدث مالم يكن متوقعاً أبداً.

فأيهما كان الوطن والمستقر .. ؟ الذى جاءت منه أم الذى عثرت عليه .. ؟

I.S.B.N. 977-376-187-8

9 789773 761875

WSalama 0101517873

سوريا	٧٥ ل.س	البحرين	٧٥٠ فلس
مصر	٥ جنيه	قطر	٨ ريال
لبنان	٢٥٠٠ ل.ل	مسقط	٧٥٠ بيسة
الأردن	١ دينار	المغرب	١٥ درهم
السعودية	١٠ ريال	ليبيا	١,٥ دينار
الكويت	٧٥٠ فلس	تونس	١,٥ دينار
الإمارات	١٠ درهم	اليمن	٢٠٠ ريال

No. 068

روايات عبير

الهروب إلى العذاب

جانيت ديلى

www.elmaktabeia.com

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

اسم السلسلة : روايات عبير
اسم الكتاب : الهروب إلى العذاب
اسم المؤلف: جانيت ديلي
رقم الايداع بدار الكتب المصرية: ٥٦٧٩/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N 977-376-187- 8
تصميم وإخراج الغلاف: وائل سلامة
جمع اليكتروني: فور إتش ٠١٠/٦٦٧٤٢٣٥

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
٢٠٠٦

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥ فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٣٩١٦١٢٢
E-mail:darkitab2003@yahoo.com

www.elromancia.com
مرمورية

روايات عبير 068

الهروب إلى العذاب

١-السؤال الأبدى

استسلم الجواد الأبيض المرقط، على مضض، لضغط اللجام، وابتعد عن الأعشاب الخصبة، وأخذ رأسه يتمايل فى ايقاع وهو يخطو فى تثاقل على الطريق. لقد شهدت عيناه خمسة عشر ربيعا، ولم يعد يثب على قائمتيه الخلفيتين مرحا، أو يرفع مقدمه بحركة مفاجئة، كما اعتاد أن يفعل من قبل. ولم يعد كذلك يرفع اللجام الحديدى من بين أسنانه. لقد أصبح سمينا وكسولا خلال

سنى عمره، وبدا كأنه يدخر طاقته ليطرد الذباب أو يلتهم العشب الأخضر الطويل، لعله يكتسب القوة استعدادا لمواجهة فصل جديد من فصول الشتاء كما تعيشه ولاية داكوتا الجنوبية.

لم يكن الجواد بحاجة الى أن ينظر فى التقويم السنوى ليعرف أن شهر سبتمبر أوشك على الرحيل. كان يكفيه أن ينظر الى الأشجار بأوراقها الخضراء وقد ظهرت عليها بقع ذهبية وبرتقالية، أو يرفع عينيه الى السماء ليرى الطيور تستعد للبدء فى رحلة الهجرة مع العلامات الأولى لبرد الشتاء. وحقول القمح المجاورة للمرعى، المتموجة، نضج محصولها وباتت السنابل الذهبية تتدلى على سوقها النحيلة. كان الجو لا يزال دافئا خلال النهار، ولكن الليالى لم تكن تخلو من الصقيع. وبدأ الجواد المرقط يتهيأ ليوطن جلده الخشن على احتمال الرياح الباردة الوافدة من الشمال الغربى. وجاءت وخزة من كعب الحذاء لتضرب جانبه. وصهل الجواد ليعبر عن استيائه قبل أن ينطلق ليجرى فى اهتزاز. كان الحمل على ظهره خفيفا واليدان اللتان تمسكان باللجام رقيقتين. وارتفعت يد لتلمس رقبة الجواد فى اطراء، وتبع ذلك جذب للجام. وعاود الجواد الآخذ فى الهرم، الجرى مسرورا. ثم ما لبث أن عاد الى مشيته المتثاقلة.

وتنهدت الفتاة التى على ظهر الحصان العارى بعمق وتركت اللجام يتدلى أمامها، بينما وضعت راحتها أسفل ظهرها وتدلت ساقاها على جانبى الحصان، وجلست فى استرخاء على ظهره

العريض، وأغمضت عينيها البنيتين الرقيقتين وقد شعرت بالدفء يسرى فى صدرها وساقيها. كان بصرها ينتقل فى سرعة فى ما حولها، مجرد رؤية دون أن ترى شيئا محددا.

كان قوامها معتدلا وشعرها بنيا دافئا مثل عينيها وقد بدا كثيفا، فى قصة قصيرة تسمح لكثافته وتموجه الطبيعى بأن يشكل وجهها البيضاوى. وكانت ملامح هذا الوجه عادية بلا جمال صارخ، وأنما كانت تتمتع بصحة عامة تبعث الرضى.

كانت جولى انطوانيت سميث فى حداثتها تندب قلة حظها من الجمال الساحر، ولكن أباها كان يضمها بين ذراعيه فى نوع من العناق الذى اعتاده، ويعتمد الى اغاظتها بصوته الضاحك قائلا:

«ان لك عينين جميلتين ترين بهما، ولك أنفا تشمين به، ولك شفتين سخيتين تشكلان فمك الذى يتكلم ويأكل بطاقم أسنانك الأبيض الناصع.»

ثم يرفعها الى أعلى فيما رأسها الى اسفل، وينعم النظر فى وجهها ويقول:

«ووفقا لآخر عملية حسابية قمت بها، فان لك أربعمائة وسبعا وثلاثين نمشة ينبغى أن تشكرى الله عليها لأنه نثر هذه الذرات الذهبية فى وجهك.»

ولكنها كانت تعبس وتقطب بسبب النمش الذى كان هناك

وكأنه ليس هناك. واذ ذاك كان أبوها يداعب ركن فمها ويجعلها تبتسم رغما عنها ثم يختتم حديثه بلذة النصر قائلا:

«وأعطاك كذلك بعض الخطوط الغائرة الجميلة على ذقنك.»

وكانت جولى تفهم أن أباها يتحيز اليها، ولكنها كانت تحس بارتياح كبير بعد تلك المداعبات. وعندما كبرت أدركت أنه كان يحاول أن يجعلها تشعر بالرضى، وقد كفت منذ زمان طويل عن أن تلعن حظها من ذلك النمش وتلك الخطوط الغائرة فى ذقنها. كما تعلمت أن تقبل المداعبات البريئة التى تتعرض لها بسبب ذلك.

ورغم أن جولى قلما كانت تحظى باهتمام من الجنس الآخر، فان الرجال الذين كانوا يألفون صحبتها كانوا يجدون فيها فتاة دائمة الابتسام تحسن الاصغاء والحديث، وكانت من النوع الذى يحن الى الجلوس الى أمه، بينما تحرص صديقاتها على ارتياد الحفلات.

كانت جولى قد عادت الى بيتها بعدما أمضت أكثر من ثلاث سنوات درست خلالها البرنامج المقرر لأربع سنوات كاملة وأتمت تعليمها وحصلت على الدرجة الجامعية. ولكن ماذا بعد؟ كانت تحس بشئ من عدم الارتياح وكان القلق يجيش فى نفسها.

لقد عادت الى مسقط رأسها وبدا لها أن كل شئ قد تغير، بينما كان كل شئ على ما هو عليه: مسقط الرأس، ثلاثمائة

وستون فدانا من الأراضى الزراعية على مسافة ستين ميلا من يانكتون فى ولاية داكوتا الجنوبية حيث ظل أبواها طوال واحد وعشرين عاما من حياتهما يفلحان تلك الأرض. وكانت حياة طيبة لكنها لم تكن تخلو من المصاعب أحيانا بسبب الطقس وأثره على المحاصيل. ولكن.. تلك كانت حياة أبويها وليست حياتها هى.

وتوقف الجواد المرقط ليأكل بصوت طاحن من كتلة كثيفة من العشب ولكن جولى استحثته على السير، وقالت:

«لو أنك أكلت أكثر من ذلك يا كشاف لانفجرت معدتك.»

واستجاب الحصان مطيعا، وواصل السير متثاقلا. وتنهدت جولى وخاطبته:

«يا لك من عجوز مسكين. لقد تغيرت أنت أيضا مثلى. صدق من قال: انك لن تستطيع العودة ثانية.»

كان والدا جولى قد عاشا بمفردهما خلال السنوات الثلاث الأخيرة، ولم يعودا قادرين على رعاية أمور ابنتهما. فهما لا يستطيعان أن يعترفا بأنها قد أصبحت الآن راشدة. لقد تزوجت أختها التى تكبرها بعام واحد ورزقت طفلين وعاشت حياة تختلف تماما عن حياة جولى. وأدركت هذه أن كل شئ قد تغير، حتى جون تالبوت ذاته.

رأت جولى سيارة جون البك آب تنتظر عند منعطف على

جانب الطريق الزراعى، وكان بقامته الطويلة التى لفحتها الشمس يقف على حافة حقل القمح وعضلات ذراعيه تلمع مع أشعة الضحى، ورفع أحد ذراعيه محييا بينما ظهرت بين أسنانه واحدة من سوق القمح، ووجدته يخطو خطى واسعة الى حافة الحقل، واقتربت منه على ظهر حصانها ثم ترجلت واندمجت جولى فى الحديث الذى يدور عادة بين سكان المنطقة:

«ان أبى يقول ان موعد حصاد قمحك قد حان.»

ونزع جون واحدة من سوق القمح قبل أن يجلس تحت شجرة ظليلة وأخرج الحبات الذهبية من السنبلة وألقى باثنين فى فمه، وقال:

«ما زالت فيه نسبة كبيرة من الرطوبة. وبعد يومين مشمسين يكون جاهزا للحصاد.»

ودفع قبعته الى الوراء واضاف:

«سوف يكون فصل حصاد طيبا.»

وعلقت جولى قائلة:

«ان أبى يشكو آلاما فى كتفه ولابد أن المطر سيسقط قبل مساء الغد.»

وابتسم جون وقال:

«بلغيه نيابة عنى أن ينتظر يومين آخرين.»

ثم سألها فى هدوء:

«ماذا بك يا جو؟»

تنهدت وأجابت:

«لا أدرى.»

وأدارت بصرها الى الوراء لتلقى عليه نظرة استطاع معها أن يلمح آثار الحزن. وواصل الحديث قائلا:

«لقد مضى أسبوع منذ قدومك. ألم تتلق أى رد على طلبات العمل التى تقدمت بها؟»

لم أتقدم بأى طلب للعمل.»

وارتفع حاجباه بعض الشئ. وتنشقت أنفاسها وهى تحول عينيها عن وجهه. ولكنه كان يعرف الكثير عما تفكر فيه.

وقالت:

«لقد حصلت على الدبلوم بالفعل، ولكننى لا أعرف ماذا أفعل بها؟»

عندئذ قال جون:

«يمكن متخرجات أقسام الاقتصاد المنزلى أن يصبحن زوجات ممتازات!»

ورغم أن تعليقه كان يعنى لها شيئا من المضايقة فقد عرفت

أن العبارة كانت نوعا من جس النبض لعله يعرف رأيها. ولكنها لم تكن تستطيع أن تخبره صراحة أنها لا تحبه، أو على الأقل لم تكن تحبه بالطريقة التى تريد أن تحب بها الرجل الذى سيصبح زوجا لها.

كان جون تالبوت حلم أية فتاة. فهو لم يكن جميل الطلعة فحسب بل كان صلبا يمكن الاعتماد عليه. وكانت أى نظرة منها الى ملامحه بأشعة الشمس تجعلها تعجب من نفسها-كيف لا تحرص على أن تفوز بالرجل الذى ظل ينتظرها خمس سنوات. لم تكن تنكر أن جون له سحر يجتذبها اليه، ومع ذلك لم تدق الأجراس ولم تسرع ضربات قلبها عندما أمسك بيديها وكانت ترى أنه ليس عدلا أن تتزوج منه وهى تعرف حقيقة شعورها نحوه.

وجاء صوته الخشن الهادئ يسألها:

«هل فكرت مرة لماذا لم أقدم اليك خاتم الخطوبة فيما كنت طالبة فى الكلية؟»

وأومأت برأسها وهى تشعر بالذنب الى درجة لم تستطع معها أن تجيب صراحة.

وتابع قوله:

«كنت أعرف أنك معجبة بى، ولكنك لم تقعى فى حبى

حقيقة.»

وظهرت على وجه جولى علامات الألم، واضطر جون أن يمد يده ليرفع ذقنها الذى كاد يغوص فى صدرها وقال:

«كنت فى الثامنة عشرة من عمرك وكنت فى الرابعة والعشرين وقررت أن من الحكمة أن أنتظرك حتى تكملى دراستك.»

وهمست جولى:

«أحس كما لو كنت أدنى مخلوق على الأرض يا جون. أعترف أننى لم أقع فى حبك. أحس باهتمام نحوك لم اشعر به تجاه شخص آخر من قبل. أحبك ولكن بشكل آخر.»

وابتعد عنها وظل يستند الى جذع الشجرة. وقال:

«الطريقة التى تحبيننى بها لن تشفى غليل أى منا لزمن طويل.»

كانت ابتسامته تعكس الأسى، وبدت المرارة واضحة على وجهه وأكمل:

«وماذا ستفعلين؟ هل ستقيمين هنا؟»

وهزت رأسها هزة لم يكد يلحظها، وأجابت:

«لا أعتقد ذلك. لقد عدت الى المزرعة لأجمع شتات أفكارى

بعد ثلاث سنوات عانيت فيها الانتظام فى الدراسة والواجبات المنزلية وغيرها. أحس كأن شخصا ألقى بى على الشاطئ. لقد ظننت أن العودة تعطينى فرصة للبدء من جديد ولكننى الآن أكثر اضطرابا. لا أريد أن أقبل أى عرض للعمل ولكننى لا أريد كذلك أن أرهق أبوى بالانفاق على. لقد كلفتهما الكثير.»

«كل شئ سيكون خيرا باذن الله.»

«آمل ذلك.. لكلينا يا جون!»

وكان يحدق فى الأرض المزروعة دون أن يبصر شيئا محددا، ثم تحول الى جولى وقال:

«هل أطمع فى أن تدوم صداقتنا؟»

وتذكرت سنوات صباها، وقالت:

«بالطبع.»

و ابتسم وهو ينهض برشاقة على قدميه، ونهضت هى الأخرى ووقفت صامتة الى جانبه. واستأنف الحديث:

«دعى عنك هذه الكآبة يا حبيبتى. لاتظنى أننى فوجئت. أعتقد أننى كنت سأدهش حقا لو انك تحبيننى بالفعل.»

وقالت:

«الخالة بريجيت ستقطع رأسى لأننى أفرط فيك.»

وضحك جون وقال:

«لا تقولى أن خالتك المشبوبة العاطفة هنا!؟»

«انها كالعذراء داخل الشرنقة. كيف تجرؤ أن تسميها مشبوبة العاطفة؟ ان أمى تقول أنها لم تذق طعم الحب فى حياتها.»

«انها فى رأيى المرأة التى تعرف معنى الحب.»

كانت تلك اجابة حيرت جولى. وتركها جون لحيرتها وقال:

«ان العم راى يبحث عنى الآن ولابد أن أنطلق.»

لم تكن جولى قد أدركت أنه اعتزم الرحيل حتى ابتعد عنها بضع خطوات فصاحت تناديه:

«جون.. اننى.. اننى أسفة.»

كان جون قد أحس بكتفيه يتصلبان بعض الشئ قبل أن يلتفت اليها. ولوح بيديه، ومع ذلك سرعان ما ابتعد عنها تجاه سيارته. ووقفت جولى ترقبه قبل أن تعود الى جوادها السمين الذى لا يزال يملأ بطنه بالكلأ.

انغلق الباب الداخلى فى المنزل المكون من طابقين وقد أحدث بعض الضجيج بينما كانت جولى تجتازه الى الداخل. ولم تكن تحس بأنها أحسن أو أسوأ حالا مما كانت فى الصباح. كانت قد اتخذت قرارا حاسما فى ما يخص المكان الذى يمكن أن تعمل فيه. اذ قررت ألا يكون ذلك بأى حال فى مكان قريب من مسقط

رأسها حتى لا تتيح ذلك فرصة امام جون لمعاودة الضغط عليها للزواج منه. وجاء صوت مهيب من شرفة فى الداخل:

«مرحبا.. من دخل!»

«أنا يا خالة بريجيت.»

قالت جولى ذلك وهى تدير رأسها قرب الباب ولوحت بيدها قائلة:

«أين أمى؟»

«انها فى المدينة تشترى بعض البقالة.»

وهمست جولى بالتوجه الى حجرتها، ولكن الخالة أشارت اليها:

«تعالى وأجلسى معى.»

وكان شعر الخالة بريجيت بلونه الرمادى قد التف فى كعكة صارمة، وكانت جولى تنظر الى خالتها التى تكبر أمها باثنى عشر عاما على انها امرأة عملية وحازمة. ولكن تعليق جون جعل جولى تتعجب كثيرا وتفكر فى مدى صدق الصورة التى تراها بها. فالملامح التى تبدو عليها الآن ربما كانت فى يوم من الايام جذابة حقا. وسألتها الخالة:

«ماذا فعلت منذ عودتك من الدراسة؟»

كانت خالتها قد أمضت الثلاثين عاما الأخيرة فى مهنة التعليم وكانت أسئلتها تصل الى جولى وكأنها أوامر. واستغرقت الفتاة فى شئ من التفكير ثم أجابت:

«كنت أستريح من عناء الامتحانات النهائية، كما كنت أحاول أن أرسم صورة لما عساى أن أفعله فى المستقبل.»

أنت تتكلمين وكأنك تتحدثين عن مشكلة خطيرة.»

كانت بريجيت كارسون قد لاحظت بالفعل التعبير المضطرب على وجه جولى. ومضت تقول:

«كأنه أمر خطير بالفعل!»

«نعم.»

قالت جولى ذلك وحاولت أن تدير وجهها حتى لا تواجه نظرة خالتها المتفحصة، وواصلت الخالة قائلة:

«أين كنت هذا الصباح؟»

«كنت فى الخلاء مع جون.»

«اننى على ثقة من أن لديه إجابة عن المأزق الذى تعيشينه.»

«نعم.. كان لديه اقتراح.»

وبدا صوتها رقيقا وحازما فى آن واحد، وأكملت:

«اننى لم أقع فى حبه حتى الآن يا خالة بريجيت.»

«اشعر بالاسف لك ولجون فى الوقت ذاته. كان من الممكن أن يكون زوجا وأبا صادقا فى حبه لك. هل أنت متأكدة من شعورك نحوه؟»

«ما هو الحب؟»

طرحت جولى السؤال وهى تستدير من النافذة نحو خالتها وأكملت:

«ان عمرى احدى وعشرون سنة ولا أعرف حتى الآن ما هو الحب؟»

«ان ذلك يا عزيزتى سؤال أبدى سوف يتردد طالما كان هناك أحياء على الأرض.»

وارتفع حاجبا خالتها القاتمان وقالت:

«لقد أدركت أنك لم تقنعى فى حب جون بعد، والا لما طرحت هذا السؤال.»

«هكذا تتخلصين من الاجابة عن السؤال.. أرجوك الا تكررى لى الكلام الذى تقوله أمى: «الحب يعنى أشياء كثيرة بالنسبة الى الكثيرين.»

«أعتقد أن الحب الذى تتحدثين عنه، حيث تدق الأجراس، شئ نادر لأنه حب بلا أنانية. وقليل من الناس من يستطيع أن يعطى مشاعره عطاء كاملا حرا. وهناك من يشقون كثيرا فى

العثور على ذلك الحب لكنهم لا يجدونه، ومع ذلك فهناك قلة من المحظوظين يعثرون عليه حقا.»

«وهل عثرت عليه يا خالة بريجيت؟»

«نعم.. ذات مرة. ولكن حادث السيارة أخذه منى.»

وعلت وجهها ابتسامة حزينة، وأكملت:

«لقد حطمنى تماما ذلك الحب. ان الذى تتحدثين عنه حب نفيس.»

«هل تعتقدين أننى سأعثر عليه؟»

«ليس بتلك الملامح الكئيبة التى تعلو وجهك.»

كانت بريجيت قد اختارت الكلمات التى ساعدت جولى على أن تخرج من شعورها بالكآبة.

«حسنا، اننى لا أتطلع الى الرحيل، كما لا أريد الاقامة هنا. ولابد من أن أشغل نفسى بشئ.»

«الواقع أن من الصعب على الانسان أحيانا أن يتخذ القرار عندما يكون وسط من يعرفهم لأنه يلح فى طلب أرائهم رغم أنه يعرف أنها لا تفيد. وفى رأيى أن ترحلى لمدة أسبوع أو أسبوعين. أرحلى وحدك الى أى مكان واسترخى واستمتعى بوقتك وسوف تدهشين كيف تصبح الأمور بعد ذلك فى غاية الصفاء.»

وهزت جولى كتفيها وقالت:

«لا أعرف مكانا معينا أذهب اليه.»

«لكن هناك بالتأكيد مكانا تريدين أن تذهبى اليه.»

ولاح فى عينى جولى شعاع ضوء للحظة. فقد تذكرت رغبة ظلت حبيسة نفسها منذ طفولتها وقالت:

«ربما.. ولكنه مكان بعيد، وليس فى وسعى أن أحلم برغبات متطرفة.»

«وماذا يضيرك لو تحدثت بما فى نفسك مبينة الى أين تذهبين لو توفرت لك النقود؟»

«سأقول شيئا قد يبدو غريبا على مسمعك، فقد ظللت أفكر فى الذهاب الى لويزيانا، حيث كانت جدتى الكبيرة لأمى أو غيرها من أجدادى يعيشون. اننى لم أكف عن التفكير فى ما اذا كانت كاميرون هول مازالت قائمة - هناك؟»

«انه لشئ غريب حقا حين نعرف كيف نجح هذا السلف الوحيد لنا فى أن يصبح جزءا من حياتنا الى هذا الحد.»

وتفحصت العينان القاتمتان جولى بعناية، وواصلت تقول:

«لقد سميت باسمها: جولى أنطوانيت. كانت البنات يحملن أسماء فرنسية عبر السنين.»

«لا يعنينى ذلك لأن حظ جولى من الجمال والفتنة أكبر بكثير مما كانت عليه جين سمث.»

وقهقهت جولى ملء فمها:

«لابد أن هناك وسيلة تستطيعين بها أن تقومى بهذه الرحلة.»

كان عقل خالتها يعمل بشكل يكاد يكون ملحوظا بينما راحت جولى ترقبها وهى تزيح الكتاب عن حجرها وتنهض لتقف:

«لا أعرف كيف؟»

«ان لدى مبلغا من المال لا بأس به ادخرته ولم أفكر قط لماذا. لم أحضر لك هدية التخرج من الجامعة لأننى أردت أن تختاريها بنفسك. وها أنت قد اخترتها بالفعل: رحلة الى أرض الأجداد. الى لويزيانا.»

وابتسمت خالتها ولهثت جولى وقالت:

«انه مبلغ كبير لا أستطيع أن أتركك تفعلين ذلك.»

«وكيف تستطيعين أن تمنعينى؟»

٢- الصغير المدلل

كان كل اعتراض تثيره جولى يجد ردا منطقيا مقنعا، حتى وجدت نفسها تجلس الى المكتب حيث بدأت خالتها تخطط معها للرحلة. كان من الضرورى أن تذهب سيارة جولى الفولكس الصغيرة للفحص الدقيق قبل الرحلة، بالاضافة الى استكمال بعض الملابس. وكان من الضرورى أن تجرى بعض الاستفسارات حول مكان المبيت فى أقرب مدينة الى المستعمرة «كاميرون هول»

بالاضافة الى تقدير المبالغ المطلوبة للوقود والطعام والمبيت. وعندما رجعت أمها من المدينة كان قد تم وضع خطة الرحلة كاملة، وقامت الخالة بريجيت بعرضها عليها كأمر قد تم الاتفاق عليه.

وعندما رأت جولى كافة تكاليف الرحلة صدرت عنها أنة ألم وقالت:

«ان أقل ما أقبله هو أن تأتى معى يا خالتى بربيجيت لتستمتعى بعض الشئ، خاصة وأنت التى ستدفعين كل النفقات.»

وردت خالتها فى حزم وسخرية:

«ليس هذا هدف الرحلة. فالفكرة منها أن تخرجى وحدك وتستمتعى ولن يتحقق ذلك إذا أصررت على أن تصبحى عانسا طوال الرحلة.»

ولم تنجح فى اى محاولة فى تغيير القرار الذى اتخذته الخالة. ووجدت جولى نفسها تستغرق فى تنفيذ الخطة. ولم يمض أسبوع حتى كانت سيارتها قد أصبحت صالحة للرحلة، ووصلت افادة تؤكد وجود اماكن للمبيت وأما الحقائب فقد تم حزمها. وعندما قادت على الطريق العام سيارتها بلونها الذى يشبه لون التوت البرى، أحست بأنها أسيرة فيض من المشاعر.

كان هناك شئ واحد يمكن أن يعكر عليها صفو الرحلة، وهو أنها قد لا تجد أثرا لكاميرون هول. فقد أوضح الرد بأنه ليس لديهم معلومات عن مستعمرة تحمل اسم كاميرون هول.

ورغم أن جولى كانت تريد أن تسرع فى القيادة، فقد استمتعت بوقتها وقسمت الرحلة الى مراحل أكثر من أربعة أيام بقليل. وكانت تقود على مهل فى الطريق الفرعى لتستمتع بالطبيعة الجميلة.

وكانت الساعة السادسة مساء، عندما قادت السيارة على مضض نحو الطريق المؤدى الى احد الفنادق الصغيرة بعدما قررت ان تستيقظ فى وقت مبكر من اليوم التالى لتستأنف الرحلة ولتستمتع بمنظر الريف الجميل دون خشية منها لدى حلول الظلام.

وفى الصباح اخترقت الغابات الوطنية حول الكسندريا وهبطت الطريق الى مدينة سانت مارتنفيل فى آخر مرحلة من الرحلة.

كان أمامها ثلاثة أسابيع للسياحة وكان عليها الآن أن تبحث عن مكان رخيص ومريح تقيم فيه.

ووقفت بسيارتها أمام أحد المطاعم. وقررت أن تسأل أحد الأهالى لعله يدلها على مكان تستأجر فيه غرفة تخدم فيها نفسها وتوفر أجر الفندق ونفقاته: وبعدما طلبت فنجانا من القهوة سألت الفتاة إذا كانت تستطيع أن تجد لها مثل ذلك المكان. وقدمت اليها الفتاة احدى الصحف المحلية لكنها لم تجد بغيتها فى القسم المخصص للاعلانات. وعندما عادت الفتاة ومعها القهوة سألتها:

«هل تعرفين وسيلة اخرى أبحث فيها؟»

وهزت الفتاة رأسها بالنفى ونظرت نحو الطاولة الكبيرة التى عليها المشروبات. وتذكرت فجأة. كان هناك ثلاثة رجال يجلسون قرب الطاولة. وقالت الفتاة:

«ربما أجد لك مكانا دعينى أستوضح.»

واتجهت الفتاة نحو الرجال الثلاثة وربتت على كتف أحدهم وأخذت تحدثه وهى تشير الى جولى. ولم تمض ثوان كان الشاب قد حضر فى صحبتها الى حيث تجلس وكانت عيناه الزرقاوان القاتمتان تتأملانها بينما كانت الفتاة تقدمه اليها:

«هذا غى لوبلان يا آنسة. أعتقد أنه يستطيع مساعدتك.»

وانسحبت الفتاة بعدما شكرتها جولى. وقال الشاب:

«اننى سعيد بمقابلتك يا آنسة.»

فقالت وهى تبتسم:

«سمث.. جولى سمث.»

وشجعها على الحديث فقال:

«أخبرتنى دينسى-التى قامت على خدمتك هنا-أنك تبحثين عن مسكن مؤقت تقيمين فيه.»

«نعم. أبحث عن مكان أستطيع أن أستفيد فيه من تسهيلات

المطبخ، ولن تطول اقامتى أكثر من أسابيع قليلة. هل تعرف مكانا تتوفر فيه هذه الشروط؟»

وأجاب غى لوبلان فى هدوء، وضحك عندما رأى حاجبيها يرتفعان بشكل ظاهر، وقال:

«بيتى.. حيث يعيش أبواى أيضا.»

وأضاف العبارة الأخيرة فى لهجة مؤكدة. ثم تابع يقول:

«كانا فى الماضى يأويان الغرباء ولو أنهما لم يستقبلا أحدا منذ مدة طويلة.»

«هل تظن أنه يمكن اقناعها بالسماح لى بالاقامة؟»

«أعتقد ذلك ولكن دعينى أصطحبك الى هناك لتتحدثى بنفسك معهما. ولكن أحب أن أوضح أن فى المكان حجرة نوم كبيرة، أما وجبات الطعام فتتناولينها مع الاسرة.»

غى لوبلان كان فى بداية العشرينات من عمره، ويكبرها بسنة أو سنتين. كان نحيلا ورشيقا، وشعره بنى داكن. أما ملامحه فكانت تتمشى مع نحولة جسمه. كان حاجباه قاتمين مقوسين وأنفه أرستقراطيا مستقيما وفمه وسيما. أما عيناه فكانتا تلمعان وتتلألأن وهما تعكسان الضوء. كان يلبس سروالاً قاتم اللون وقميصا قطنيا زاهيا، ومظهره يعكس احساسا بالثقة والارتياح. وسحرا فى نظراته يستغله كلما واتته الفرصة.

كانت تعليماته محددوة وهو يرشدها طوال الطريق الى البيت. وكانت قد قدرت أنه ربما طلب أن يقود السيارة بنفسه، ولكنه علق بأنه يفضل النظر اليها على النظر الى الطريق الذى يسيران فيه. وقال فى النهاية:

«البيت الأبيض على الناصية. هناك مكان للسيارات خلف المبنى.»

وأحست بغرابة مخارج الكلمات فى صوته. لم تكن لهجته كلهجة أهل الجنوب. واتبعت تعليماته وسارت بالسيارة الى وراء المبنى.

ثم قادها الى البيت.

كانت الغرفة التى دخلتها حجرة المعيشة الأسرة فيها مقاعد بيضاء وأرائك كثيرة وكانت هناك شجيرات تعكس الخضرة الطبيعية فى المكان، بعضها يتدلى من السقف العالى فى أوان معلقة بينما كان بعضها الآخر من فصائل شجر المطاط ينمو فى أحواض خشبية ضخمة وضعت على الأرض.

وبادرها قائلا:

«اذا انتظرت هنا فسأحضر والدى.»

وأومأت بالموافقة. وذهب ينقل الخبر. ووقفت جولى تحدق فى الحجرة وتبدى ارتياحها الى ما تراه. كان المبنى قديما ولكنه معتنى به ويصعب تقديره. وسمعت طقطقة زوج من الاحذية آتيا من الردهة العريضة فتنبأت بعودة لوبلان ومعه آخر.

«ها هو ذا الضيف الذى أخبرتك عنه يا أمى.»

وكانت هناك امرأة قصيرة لاتصل قامتها الى خمسة أقدام تقف الى جانب غى. كانت ممتلئة الجسم على نحو جميل وتبدو عليها الأمومة بشكل واضح وكانت خصلات من الشعر الرمادى تبدو فى الكعكة التى استقرت فوق رأسها. ومدت يدها الصغيرة الى جولى وقد أشرق وجهها بابتسامة:

«قال ابنى أنك تريدين مكانا للاقامة يا آنسة سمث.»

وأومأت جولى وقد شدها الود البادى على وجه المرأة الاكبر سنا.

«نعم.»

ووجهت السيدة لوبلان الكلام الى ابنها مداعبة:

«انها أكثر مما ذكرت لى. الذلك تحرص على أن تقيم معنا!؟»

وتنفست جولى الصعداء وقالت:

«لديك حجرة تؤجرينها؟»

لم تسأل عن الأيجار. ومع ذلك كان الرقم معقولا فى حدود طاقتها. لقد وجدت مكانا للاقامة فى مكان طيب ومع أسرة ودودة.

وتدخل غى متسائلا:

«قولى لى يا آنسة سميث، لماذا اخذت سانت مارتنفيل مكانا تمضين فيه اجازتك؟ لماذا لم تختارى نيوأورليانز وهى أكثر تألقا؟»

وأنبت السيدة لوبلان ابنها بقولها:

«غى! ان لدينا الكثير مما يعجب الزوار. فهناك متحف المنزل الأكادى وسوق الحرفيين ومتحف التراث الاكادى فيلوروفيل، والمناظر الفخة فى نيوأيبيريا. ثم ما رأيك فى جزيرة آفرى؟ ومدينة الطيور فيها والحدائق البرية؟»

ووجهت الكلام الى جولى:

لا تصغى اليه. هناك الكثير الذى سيعجبك. واذا أردت أن تزورى نيوأورليانز فهى رحلة قصيرة من هنا.»

وأظهرت جولى موافقتها وترددت فى التصريح عن غرضها الأساسى. ثم قالت:

«هناك سبب آخر جعلنى أحضر الى هنا. فأحد أسلافى عاش فى المستعمرة هنا وسميت بالفعل باسمه جولى أنطوانيت سيمث وهى كاميرون هول. وربما سمعتم بها؟»

وحبست أنفاسها بينما صمت الأثنان برهة قبل أن يجيبا.

وبدأت السيدة لوبلان:

«الاسم مرة ثانية؟»

«كاميرون هول.»

والتفتت الى ابنها تسأله:

«هل تعتقد أنه قصر ايتيان القديم؟»

وهزت رأسها ثم قالت:

«لكن لا. كان هذا يحمل أسم المعبد لقد خلطت بين المستعمرة وبينه، ومع ذلك فان غى مطلع على هذه المسائل. سوف نسأله لعله يعرف المكان الذى تبحثين عنه. والأن لتستريحى فى بيتنا. هيا يا غى، أحضر حقائبها بينما أقوم بارشادها الى حجرتها. هل تأذنين بأن أناديك جولى؟»

وأعطت جولى مفاتيح السيارة الى غى وصممت على أن يناديها باسم جولى. وبدأت تتبع السيدة لوبلان عبر الردهة العريضة الى السلم المؤدى الى الطابق العلوى. واستفسرت جولى وهى تقبض بيدها على الدرابزين الخشبى:

«هل عشت واسرتك هنا منذ زمن طويل؟»

وأجابت السيدة لوبلان بسرعة:

«فى سانت مارتنفيل، كل حياتنا انا وزوجى اميل. لقد أشترينا هذا المنزل بعدما تزوجنا بسنوات قليلة. كان زوجى بارعا فى مهارته اليدوية. ورغم أن المنزل كان فى حالة سيئة فقد عمل على اصلاحه حتى صار على الحال التى ترينه فيها.»

وأومأت جولى وقالت:

«انه جميل للغاية. هل جاءت أسرتكم من فرنسا أصلا؟»

واستدارت السيدة لوبلان لتجيب عن السؤال المصاغ بأسلوب مهذب فى شئ من الثقة:

«انك لا تعرفين تاريخ لويزيانا.»

واحمر وجه جولى خجلا وهى تجيب:

«أعرف فقط ما يعرفه معظم الناس والقليل مما تحويه كتب التاريخ.»

وأحست أنه قد فاتها القيام بشئ من الدراسة قبل أن تقوم بالرحلة الى ذلك المكان.

«اذن فأنت لم تسمعى قصة الشعب الاكادى؟»

وهزت جولى رأسها وقالت أنها لم تسمع تلك القصة. وواصلت السيدة لوبلان.

«لكنك سمعت بقصة الكاجون؟»

وابتسمت السيدة لوبلان عندما أومأت جولى بالموافقة. وهى تقول:

أن ما سمعته منك الآن يقنعنى بأننى سأجد كثيرا من الاستمتاع.»

«آمل ذلك.»

وسارت المرأة أمامها عبر ردهة تتساوى فى سعتها بالردهة

السفلى. وتابعت:

«يقع الحمام عند نهاية الردهة أما حجرتك فهى هنا.»

وفتحت أحد الابواب وخطت الى الخلف لتسمح لجولى بالدخول. وقالت:

«هل تعجبك؟»

«انها فسيحة للغاية»

ووجدت جولى نفسها فى حجرة فسيحة ذات سقف مرتفع ولها نافذتان ضخمتان تمتدان من الارض الى السقف وفى أحد الأركان كان مكتب صغير وكرسى بالاضافة الى مقعد وثير له مساند مريحة، ومصباح أرضى وسرير لفرد واحد، بالاضافة الى تسريحة من خشب الاسفندان. وكانت هناك سجادات صغيرة ذات لون سماوى فاتح تنتشر على الارض الخشبية المصقولة الامعة تبرز ألوان الباستيل التى صنع منها فراش السرير ومساند المقعد. وكان الانطباع العام الذى يوحى به المكان هو السعة والهدوء والراحة. وأخذت السيدة لوبلان توضح:

«كانت هذه حجرة ابنتى الكبرى قبل الزواج. انها فسيحة ما يسمح لك بالحرية الشخصية دون أن تشعرى بالضيق.»

وشعرت جولى بارتياح أكبر عندما دلتها السيدة لوبلان على الباب المستتر الذى يؤدى الى المرحاض الخاص بها. وسألتها:

«كم طفلا رزقت؟»

«خمسة. واثنتان من بناتى قد تزوجا. أما كلودين فتعيش معنا بعضا من السنة، وابنتى الصغرى ميشيل تعمل مدرسة هنا. وأخيرا الولد المدلل غى.»

وأطل غى برأسه من الباب ضاحكا:

«الصغير المدلل. هل لى أن أدخل.»

وغمزت السيدة بعينيها وهى تقول لجولى:

«ها هو ذا يعترف بأنه مدلل.»

وأشارت الى أبنها وهى تقول:

«أدخل الحقائب يا غى»

ووضع غى الحقائب بالقرب من الفراش. وتنهد طويلا وهو يحييها ويعد بأنه يتطلع الى رؤيتها فيما بعد. وعندما ترك الحجرة التفتت السيدة لوبلان نحوه وضحكت وهى تقول:

«ابنى العاشق.. سأتركك الآن لتفرغى حقائبك وسنتناول وجبة باردة فى الساعة الواحدة بعد الظهر. وحجرة الطعام هى الثانية الى اليمين بعد السلم.»

٣-الخيال الهادئ

تحدثت جولى فى لهجة امتزج فيها السؤال والاستفسار فقالت:

«ألا تعمل فى أى مكان يا غى؟»

ورد فى سخرية، وهو يدس يدها بحزم تحت ذراعه، وهما يهبطان الممر الجانبى:

«أتكون جريمة كبيرة اذا كنت لا أعمل؟»

«إنه يكون اهدارا.»

«وهل يخيب أملك اذا لم تكن لى مهنة معينة؟»

«ولماذا يخيب أملى بسبب ذلك؟»

«لأننى أعرف مما ذكرته أنك سليلة أسرة مكافحة، ولذلك فأى رجل يتكاسل يكون فى رأيك سئ السمة وأنا أريد ألا تظنى بى سوءا، وأعترف أننى أعمل محاسبا رغم أن عملى لا يزال محدودا.»

كانت دهشة جولى تنعكس على وجهها.

«ان الشكوك التى ترسم على وجهك تجرح كبريائى. اننى أعمل لنفسى وليس هناك من يسألنى عن عملى سوى نفسى، وأحصل على دخل وفير مقابل وقت قصير أخصصه للعمل. وهناك أوقات أجد فيها نفسى مثقلا بالعمل، وأوقات أكثر لا يكون لدى فيها الا القليل مما يشغلنى. وفى الحالة الأخيرة أجد الفرصة لاصطحاب الصغيرات الجميلات عبر المدينة لمشاهدة المعالم الهامة. أليس ذلك رائعا فى نظرك؟»

وابتسمت جولى ابتسامة ذكية أبرزت خطين شديدى الغور فى وجنتيها وهى تقول:

«أعتقد أنك تريد أن تظهر فى مظهر الخبث مع أنك لست كذلك تماما.»

«إن النساء يحبون الخبثاء.»

وعلقت جولى:

«والأمان بالطبع فى أن تكون حولك منهن الكثيرات.»

وتعمد أن يسير فى خطى أبطأ، وقال:

«أعترف لك أنك تستطيعين أن تكونى منقذتى.»

وأطلقت جولى ضحكة نمت عن عدم التصديق. وقالت:

«أنا؟ لماذا؟»

«لأنك تستطيعين أن تجعلى الرجل يتطلع الى التغيير.»

قال ذلك وقد بدا فى نظرته شئ يدل على الجدية رغم الابتسامة الواضحة.

وابتسمت جولى، وقالت:

«بعد واحد وعشرين عاما واظبت فيهاعلى النظر الى المرآة، أعرف تماما أن نصيبى من الجمال لا يمكن أن يثير اهتمام أى رجل، فوفر على نفسك الاطراء لأنه لن يجد فى نفسى مكانا يا غى.»

وتحدث فى اصرار:

«إننى أقول الحقيقة. لو أنك كنت فى قاعة مع أجمل نساء العالم، سيظل وجهك على ذاكرة أى رجل سوف يعاوده خياله

الهادئ المثير. وأعترف أن فى تعبيرى بعض التناقض ولكن هذا هو السبيل الوحيد لوصف ذلك المزيج من النمش الباهت مع الخطوط التى تظهر فى الوجه، ومع العينين البنيتين الرقيقتين. أنك تجعلين أى رجل يستغرق فى التفكير عندما ينظر اليك.»

وأومأت جولى برأسها قائلة:

«إنك تتحدث عن فتاة تأخذها الى بيتك لالتقدمها الى أمك.»

كانت قد أحست بصدق كلماته ولكنها، شأن كل النساء، كانت تتمنى أن تكون من النوع الذى يخلب لب الرجال ويدير رأسه ليجعله يفكر فى أى شئ دون أن يكون للزواج دخل فى ذلك. وصحح لها غى فى هدوء قائلا:

«بل أقول الفتاة التى يزهو بها كل الزهو وهو يصحبها الى أمه.»

«أعتقد أنك تعانى عدم وجود منافس.»

كان الحديث قد ركز حول المسائل الشخصية بطريقة لم تكن جولى تريدها، وكان من الضرورى تغيير الموضوع. وضحكت جولى ثم تابعت:

«أين نحن الآن من شجرة البلوط؟»

«انها عند الناصية المقابلة.»

وتوقفت أحدى السيارات قرب حاجز المنتزه الصغير وراحت

تطلق نفيرها حتى جذبت اهتمام كل من غى وجولى. وأخذت الفتاة ذات الشعر القاتم الجالسة الى عجلة القيادة تلوح لهما. وقال غى:

«والان، هل تصدقين مدى شعبيتى؟»

وكان كفاه قد ارتفعا فى زهو وقد استسلم ساخرا للأقدار، وصاحت الفتاة التى تقود السيارة:

«هل تريدان أن أوصلكما الى البيت؟»

والتفت غى الى جولى قائلا:

«إنها مسافة طويلة هل تفضلين الركوب؟»

وعلقت جولى فى لهجة مداعبة:

«لا أريد أن أتسبب فى كرمشة ثيابك، كما لا أريد أن أكون مثار حقد من جانب فتاتك.»

وأجاب بالقدر ذاته من الفكاهة:

«لقد نسيت أن أخبرك أننى كنت ماهرا للغاية فى الشعوذة.»

«حسنا. سوف نركب معها الى البيت. اننى أتوق الى رؤيتك تمارس هوايتك.»

وضحكت، وبينما كان يساعدها على الصعود الى المقعد الأمامى علقت الفتاة قائلة:

«لقد أخذتما وقتا طويلا قبل أن تحسما رأيكما! ألم تدركا أنه لا يوجد فى هذه المنطقة مكان للانتظار؟»

وأجاب غى:

«كنا نناقش ما اذا كنا نفضل العودة سيرا على الاقدام.»

«فى هذا الجو الحار تريد أن تلهو - لماذا؟ ان المشى فى الحر قد يوهن صحتكما بشكل ضار.»

وكانت تضع نظارة باطار مذهب أضافى على عينيها القاتمتين ضياء زاد من جمالها.

وابتسمت الفتاة ابتسامة سريعة موجهة الى جولى وهى تقول:

«اذا كان غى لا يعنيه أن يقدم كلا منا الى الاخرى فلنفعل ذلك بأنفسنا. اننى شقيقته ميشيل.»

اسمى جولى سمث وقد استأجرت حجرة من أبويك لأيام قلائل.»

قالت ذلك وقت ألقت نظرة جانبية على ملامح غى المهذبة.

«لقضاء عطلة أم تعتزمين الاقامة؟»

«عطلة.»

«واخى العزيز جدا كان يصحبك فى جولة سياحية.»

ونظرت ميشيل الى غى نظرة لها مغزاها رد عليها بملامح

بريئة، وأضافت فى ابتسامة:

«كيف تنجح دائما فى العثور على الجميلات؟»

«اننى مغناطيس. وهن يجدنى كذلك. كيف حال التلاميذ المزعجين اليوم؟»

ورفعت ميشيل عينيها تجاه السماء، وهى تقول:

«لا تسأل!»

وظهرت على وجهها نظرة ساحرة حزينة وهى تلتف الى جولى وتقول:

«أعمل هنا فى التعليم. هل تصدقين أن أحدهم قد أخرج الحرباء من الصندوق الزجاجى وصارت تتسلق الصندوق الخاص باحدى التلميذات. ولقد سمعت من الصراخ اليوم ما سوف يظل يتردد صداه فى أذنى سنوات.

وقال غى لجولى:

«لا تصدقى هذه الشكوى، فانها تحب عملها بالقدر الذى يغرم به الأولاد بالبنات.»

وهزت جولى رأسها فى أسف، وقالت:

«ان عقلك يتجه دائما الى موضوع واحد.»

وعلقت ميشيل موافقة بقولها:

«هل لاحظت أنت أيضا ذلك؟»

«لقد جعلنى أعتقد أنك واحدة من العديدات المتيمات به.»

واعترض غى قائلا:

«حسنا. أرجو أن تكفا أنتما الاثنين عن مهاجمة رجل مسكين أعزل. كيف تحتفظ جولى بتقديرها لى اذا ما عاملتنى بهذه الطريقة الساخرة؟»

وهمست ميشيل قائلة:

«طبيعة الرجل الهشة!»

وضحكت جولى لذلك، وصاح غى متصنعا الغضب:

«ألم تعلمك أمنا أن الهمس أمر غير لائق؟ أرجو يا جولى أن تتجاهلى ما قالته لك.»

وضحكت شقيقته، وقالت:

«لابد أن تجد من يحذرها ضد سلوك شبابنا فى الولايات الجنوبية..»

ووصلوا الى بيت لوبلان حيث ظهرت الأم عند قوس الباب الخلفى لترحب بهم. كانت التجربة غير عادية بالنسبة الى جولى، وأحست تماما أنها تألف أولئك الناس الذين لم يسبق لها أن تعرفت عليهم قبل يوم. فتحوا قلوبهم وأذرعتهم بالصداقة.

وأخذ غى يسأل:

«حسنا. ما رأيك فى شقيقتى؟»

أجابت جولى فى ابتسامة:

«إنها رائعة.»

عندما دخلت الأم حجرة المعيشة. كانت تحمل صنية عليها ابريق ملئ بعصير الليمون وبعض الأكواب. ولم يكن الأمر يحتاج الى اقناع أى منهم بالمشاركة فى الشراب المنعش.

وقالت السيدة لوبلان:

«لقد تلقيت خطابا من كلودين اليوم، وسوف تعود الينا مع نهاية الاسبوع.»

وبدا أن غى لم يسعد بالخبر، وقد ظهر ذلك على ملامحه أكثر مما بدا على كلماته، وهو يقول:

«وهل تطول اقامتها هنا؟»

وأجابت الأم:

«أعتقد أنها ستقيم معنا حتى موسم الاجازات.»

وبدأ الصمت يسود المكان. وعلقت جولى قائلة:

«لابد أنها تعمل فى مكان ممتاز يسمح لها بأن تستمتع بكل هذا الوقت.»

وبدأت السيدة لوبلان توضح، فقالت:

«ابنتى فنانة وتعرض لوحاتها فى نيو أورليانز خلال الأجازات فى فصلى الصيف والشتاء. أما باقى السنة فانها تمضيه هنا ترسم لوحات الكنفا الجديدة ليكون لديها باستمرار رصيد كاف..»

ونظرت جولى الى كل من ميشيل وغى تتوقع منهما أن يشعرا بالزهو الذى تشعر به أمها، وقالت:

«لابد أنها ناجحة الى حد ما.»

وأومأت الأم فى سرعة، وقالت:

«نعم، انها كذلك. وأكاد أقول ان اللوحات التى ترينها هنا من كلودين.»

وتذكرت جولى على الفور اللوحتان اللتين تزينان جدران حجرتها. وقدرت جولى أنه اذا كانت كلودين هى التى رسمت تلك اللوحات فلا بد أنها فنانة ناجحة للغاية.

ثم دخل والد غى. كان اميل لوبلان ضئيل البنية ويبدو كشاب نحيل القوام، وكان شعره فى ما مضى قاتما كشعر غى ولكن الشعر الابيض والرمادى بدأ يزحف على جانبى رأسه وعلى مؤخرة رقبته. وبعدما حيا أسرته وطبع قبلة محبة على وجنة زوجته استدار نحو جولى مبتسما ومستفسرا:

«من الآنسة الجميلة التى تشرف حجرتنا يا جوزفين؟»

وبدأت السيدة لوبلان على الفور تشرح ظروف اقامة جولى وهى تقدمها اليه. وكان ترحيب السيد لوبلان بها كريما كباقى أعضاء الأسرة، بل كان فيه نوع من المداعبة الودودة كترحيب غى بها وقال:

«جولى أنطوانيت. هذان اسمان فرنسيان ربطا باسم آخر شائع الاستعمال مثل سمث.»

ثم قال مضيفا:

«ينبغى هنا أن نضع لك خطة لسياحة المنطقة حتى لا يفوتك شئ خلال اقامتك هنا.»

ونظر الى ابنه وابنته ليتحملا هذه المسؤولية. وأضافت السيدة لوبلان فى حزم:

«لا يزال هناك وقت لذلك فيما بعد يا بابا. وأعتقد أن جولى تفضل أن تكمل شرابها، وتأخذ راحتها قبل العشاء. فهى لم ترتح بعد من رحلتها الطويلة ولم تتعود على الرطوبة العالية عندنا ولا ينبغى أن نفرض عليها خططنا بأى حال.»

وأومأ الأب يقول:

«حقا. حقا.»

والتفت الى جولى معتذرا، لكنها اكدت له:

«اننى غريبة تماما عن هذه المنطقة يا سيد لوبلان. وأكون شاكرة حقا لو تفضلت بأى اقتراح.»

«مع ذلك فان زوجتى على صواب فهذه المناقشات ينبغى أن توجل الى ما بعد العشاء.»

والتفت ذراعه حول زوجته، وقال:

«ماذا ستقدمين لنا الليلة؟ هل فكرت فى طبق خاص لضيفتنا الجديدة؟»

«ليس الليلة. دعها تتعود على مناخنا أولا، ثم مطبخنا.»

وحاولت جولى أن تعبر عن الاحساس الذى تملكها وهو الشعور بالذنب لأنها أقلقت حياتهم. ولكن اعتذارها لم يكن له مكان، فقد أكدت لها السيدة لوبلان أنها لم تسبب لهم أدنى اقلاق. ولم تملك جولى الا أن تستسلم، فقد كانت هى الأخرى تستمتع بدفء كبير فى محيط تلك الأسرة.

٤-خواطر حزينة

كان الصباح قد استسلم الى شمس الضحى فى اليوم التالى قبل أن تطمئن السيدة لوبلان الى أن جولى قد زودت بما يلزمها من الطعام والشراب والكتيبات والتعليمات التى تمكنها من السياحة يوما كاملا. وجلست جولى فى أمان خلف عجلة قيادة سيارتها وأخرجتها من الممر.

لم تكن جولى تعرف وجهتها رغم الأماكن العديدة التى رشحت

لها. وكان الجو ينبئ بطقس يميل الى الحرارة. لذلك اختارت أن تسلك الطرق الجانبية التى تحيط بسانت مارتنفيل، وتستكشف الطبيعة من منظور آخر غير القيادة على الطرق العامة.

وسلكت طريقا يتجه من المدينة شرقا وتركت وراءها سانت مارتنفيل. كان الطريق خاليا، وتركت سيارتها تسير بالسرعة التى أرادتها، تبطئ عندما يشد عينيها منظر يثير الاهتمام، وتسرع لتجعل الرياح المتولدة عن حركة السيارة تداعب وجهها.

كانت مزارع قصب السكر تنتشر فى المكان وبعض جذوعه تعلو فتظلل السيارة، بينما الآخر لا يكاد يصل الى النافذة. وانتشرت على جانبى الطريق منازل لم تكن تختلف فى منظرها عن امثالها فى مسقط رأسها. مع ذلك كانت من وقت الى آخر تلمح بيوتا تتكون من طابقين وقد تراجعت الى الداخل بعيدا عن الطريق تاركة أمامها مرجا أخضر يشقه طريق يؤدى الى البيت تحدده صفوف من أشجار البلوط.

وعلى بعد أقدام كان المستنقع الذى تحول الى أرض للمرعى، وبدت قطعان الحيوانات ترعى العشب الكثيف فى منظر لم تألفه، جولى. وكانت تظن أن تلك الماشية تكثر فى المناطق البرية من الولايات المتحدة، لا فى ولاية لويزيانا.

واستدار الطريق فى منعطف سهل حول المراعى، ووجدت جولى أن على الجانب الآخر من الطريق خطا متعرجا من الماء

سرعان ما اكتشفت أنه رافد. كانت أشعة الشمس تسطع فوق سطحه بشكل جعله يعكس صفاء منظر هادئ.

وخطر لجولى أنه مكان تسعد فيه بتناول طعام الرحلة الذى أعدته السيدة لوبلان. وعبرت الطريق تحمل على احدى ذراعيها سلة الطعام والسجادة الصغيرة، وتحمل على الزراع الاخر الترموس، وحقيبة يدها.

انحت على العشب القصير وفرشت السجادة الصغيرة وأخذت ترتب الأشياء الى جانبها.

وأخذت عيناها باهتمام تتفحصان المكان المحيط بها. وعلى مسافة أمتار قليلة كانت هناك شجرة بلوط صغيرة تركزت عيناها على اغصانها العليا وانتقلتا الى الجزوع ثم الى أسفل الشجرة. وتوقفت يدها فجأة فقد وقعت عيناها على رجل كان يسترخى هناك. وسرت الدماء فى وجنتيها من وقع المفاجئة، فقد كانت عيناه تتفحصانها فى جرأة.

وتحدث قائلا:

«أرحب بأن تشاركينى الاستمتاع بمنظر ذلك الرافد.»

كان شئ ما فى صوته المهذب يجبرها على أن ترفع بصرها نحوه، ووجدت نفسها تحدق فى عينين لم يسبق لها فى حياتها أن رأت مثلها فى القتامة، وكانتا تلمعان فى استثارة من وراء ظلال

رموش قاتمة مجعدة، وكان حاجباه وشعره بلون أسود أشبه بجناح غراب لامع وقد صبغت الشمس بشرته بلون بنى يشبه خشب الساج. ولم يبد فى ساقيه البارزتين من سرواله القصير أى أختلاف عن لون ذراعيه. كان طويل القامة وجسمه ممشوقا يعكس انطباعا عن قوة فى ذراعيه دون بروز فى العضلات، فيما كتفاه وسيمان عريضان.. وعندما ابتسم كشف عن أسنان بيضاء كاللؤلؤة. ولاحظت جولى الخطوط الغائرة التى برزت على جانبى فمه وقال:

«أعد بأننى لن أضايقك.»

واحمرت وجنتاها وقالت وهى تعرف أنها تكذب:

«لم يخطر لى أنك تضايقنى.»

«كان ينبغى أن يخطر لك، فقد أحسست فعلا برغبة فى ذلك.»

«لا أريد أن أقطع عليك خلوتك.»

«على العكس.»

قال الرجل ذلك، ومشى عائدا الى مكانه أسفل الشجرة فى وضع الاسترخاء الذى كان عليه. واستمر يقول:

«ان جلوسك لتناول الطعام لن يؤثر على جلوسى لصيد السمك، ويمكنك أن تبقى فى المكان ذاته.»

وامتد بصرها الى الصنارة وهى تقول:

«ولكن هذا الوقت من النهار ليس مناسبا للصيد، فالجو حار.»

وعلق قائلا:

«يبدو أنك لك خبرة فى الصيد.»

وأجابت جولى وهى تبطئ من عزمها على الرحيل السريع:

«بعض الخبرة.»

وابتسم فى مواجهتها من جديد وقال:

«ان لى نظرة حول الصيد فى هذا الوقت من النهار. أتحبين أن تعرفيها؟»

وقعدت على السجادة الصغيرة وقالت:

«وما هى؟»

«أعتقد أن الأسماك الكبيرة الذكية تعرف أن الصيادين لا يخرجون الى الصيد فى أوقات خاصة تتجنبها هذه الأسماك. أما فى مثل هذا الوقت الحار فانها تبحث عن الطعام فى مأمن من شباكهم.»

«وهل تحققت نظريتك؟»

«كلا. ومع ذلك فهى فرصة لتدريب الديدان التى أستخدمها

كطعم.»

قالت جولى:

«ان لدى من الطعام الشئ الكثير. هل تحب أن تشاركنى؟»

وعلق قائلا:

«كنت أظن أنك لن تفكرى أبدا فى أن توجهى الى هذه الدعوة.»

«لم أكن أريد بأى حال أن أشتت انتباهك وأنت تحاول أن تثبت صحة نظريتك، وكنت أكره أن أكون سببا فى ضياع السمكة الكبيرة منك.»

قالت ذلك وهى تعود الى حيث كانت تستقر سلة طعامها. وتابعت:

«بالطبع، لو أن السمك الكبير على ذلك القدر من الذكاء كما تظن، فمن المحتمل أنه سمع نظريتك وبدأ يحتاط ضد حيلتك»

كانت قد أحبت صوته المرح أثناء الضحك وهو ينضم اليها فى تناول الطعام، ومع ذلك كانت هناك أشياء عديدة حول ذلك الشخص الغريب الذى أعجبها الى جانب نظراته الوسيمة المؤثرة. ورغم ذلك فان أسلوبه الذى ينم عن الثقة الزائدة بالنفس والذى بدا فى قدرته على اعادة الطمأنينة الى نفسها، جعل جولى تعتقد أنها أمام شخص يتفوق عليها فى الخبرة. ومع ذلك لم تستطع الا

أن تستجيب بابتسامة مماثلة عندما جلس على السجادة الصغيرة الى جانبها، ووضعت رقائق البطاطس بينهما قبل أن تمد يدها لتخرج بقية الطعام. كانت هناك شريحتان من اللحم البقرى المشوى قدمت اليه احداهما واحتفظت لنفسها بالأخرى، وقالت:

«يمكنك أن تختار من التفاح أو البرتقال، أو من كليهما. ويوجد من كل زوجين اثنان هنا.»

«هذا كثير. شكرا!»

وسادهما صمت وهما يتناولان الطعام منحهما الفرصة للاستماع بمذاقه الشهى. ووجدت جولى نفسها تضطر للاعتراف بأنها تستمتع بالوجبة، وأحست لأول مرة بحريتها فى أن تكون على سجيتها وألا تقيم وزنا لمشاعر أى شخص آخر مثل والديها أو جون.

ومدت يدها الى الترمس تتناول كوبا من عصير الليمون. وادرك أنه لا يوجد غير كوب واحد وملأت الكوب وقدمته اليه، كما اقتسما الطعام. أعاد الكوب اليها بعدما شرب نصيبه.

كانت جولى قد نهضت على قدميها، وبدأت تحمل اللفائف المختلفة على ذراعيها. وكان الرجل يمتدحها لكنه لم ينجح الا فى أن تحس بمزيد من الضيق لنقص جمالها.

كانت من قبل على ثقة كبيرة دائما، وقادرة على أن تحتفظ

بثباتها أمام أى رجل. أما هذا الرجل فكانت له جاذبية خاصة ومؤثرة الى درجة كبيرة. ورأت أنه من الأفضل أن تهرب قبل أن تتورط فى شئ تخشى عقباه.

«أرجو ألا تظن أننى أقسم طعامى ثم اهرب ولكن من الأفضل أن أعود الآن.»

«ولكن وقت ما بعد الظهيرة لا يزال ممتدا.»

كان هو الآخر قد نهض على قدميه، وبدأ يختلس النظر اليها بطريقة تستحثها على البقاء.

«لكن اجازتى قصيرة.»

قالت ذلك فيما كان قد وقف ينتظر منها أن تسلك الطريق الطريق الى سيارتها.

وعندما تم وضع كل شئ على مقعد السيارة الخلفى التفتت جولى قائلة:

«وداعا.»

وامتد بصره الى وجنتها وقال:

«عليك أن تطلى سيارتك بطريقة تنسجم مع النمش على وجهك. عندئذ يكون كلاكما أنثى طائر جميل تستعد للعودة الى مأواها.»

«سيكون ذلك بدعة!»

قالت ذلك وهى لا تجرؤ على النظر الى عينيه. وجلست خلف عجلت القيادة، وقالت:

«شكرا على قبولك مشاركتى إياك مكانك المختار للصيد.»

«شكرا على وجبة الظهيرة.»

«حسنا. الى اللقاء.»

قالتها بالانجليزية وبدت الكلمات مبهجة حتى على أذنى جولى.

«لا تقولين الانجليزية، ولكن بالفرنسية.. حتى نلتقى ثانية!»

كانت جولى قد أدارت محرك السيارة وانطلقت بها. وخطر لها أن الفرصة للقاء ثان أمر بعيد الاحتمال. اذ كيف يتسنى لهما أن يتقابلا من جديد؟ لم يكن يعرف اسمها أو مكان سكنها، كما هى لم تكن تعرف شيئا-عنه. وكان ذلك الخاطر محزنا فى حد ذاته.

٥-أيهما يملك الآخر

كان غى ووالده يحضران اجتماعا يعقده احد الاندية المحلية، وكانت السيدة تزور قريبة لها كبيرة فى السن. وجلست ميشيل على الأريكة المغطاة بفراش ذى نقوش مربعة، وحولها بعض الكراسات تقوم بتصحيحها بينما آلة التسجيل تملأ الحجرة بموسيقى مرحة.

وجلست جولى تكمل رسالة كانت تكتبها الى خالتها بريجيت،

ولم تكن تستطيع أن تجعلها مبهجة مثل الرسائل السابقة. كان شبح الوجه القوى، بشعره الأسود القاتم وعينيه الزرقاوين، يطل عليها باستمرار، لقد اعترفت جولى لنفسها صراحة أنه سحرها بما يعرفه عن لويزيانا، وبما يتمتع من مرح وفكاهة. ولأنه لا يحس بزهو أو خيلاء، كان واثقا من نفسه وليكن متغطرسا يغيظ الآخرين أو يسخر منهم. كان يعرف الكثير ولا يتباهى بما يعرف. وحاولت أن تكف عن التفكير فيه فلم تعد بعد طلفة ولم تكن من النوع الذى يستسلم للأحلام.

وأطلقت تنهيدة عميقة سمعتها ميشيل فرفعت عينيها من وراء النظارة ذات الاطار المذهب، وسألتها:

«هل تكتبين الى فتاك؟»

«لو بقيت فى ذرة من العقل لكتبت له، ولكننى أكتب لخالتى.»

«اجابتك توحى لى بشيئين: أن لك فتى وأنك على خلاف معه.»

«أنت على صواب فى كلا الاستنتاجين.»

«هل تفتقدينه؟»

«لا. ولكن ضميرى يؤنبنى بين الحين والحين.»

قالت جولى ذلك فى ابتسامة حزينة.

«كان يحبك وأنت لا تحبينه، وهذا يجعلك تشعرين بالقلق.»

قالت ميشيل ذلك بينما كانت جولى:

«ان لدى جون كل ما تحلم به الفتاة فى أى شاب، فهو لطيف ومحب ووسيم.»

وضحكت جولى من نفسها وتابعت:

«اننى لم أعثر بعد على فتى أحلامى.»

«طموح زائد!»

قالتها ميشيل وهى تومئ برأسها.

«ماذا؟»

«طموح زائد! شئ كثير.»

وبدا أن أنسب شئ أن تعمل بنصيحة خالتها فلا تشغل نفسها بالمشكلة، وتترك للوقت حل كل شئ. وقالت جولى:

«لقد فكرت فى الذهاب الى أوبيلوساوس غدا لأزور متحف جيم باوى ثم أزور مدينة لافاييت.»

وتطرق الحديث فى الذهاب الى ما يعجب السائح فى كلتا المدينتين. وعندما استقرت جولى فى فراشها تلك الليلة عز عليها النوم وحاولت أن تشغل نفسها بالتفكير فى برنامج اليوم التالى، ولكن عقلها كان مشغولا بشبح ذلك الرجل الغريب. ونامت نوما متقطعا وهى تتقلب فى فراشها.

وفى الصباح التالى انتزعت نفسها من الفراش انتزاعا، فقد ناكت نوما عميقا واستيقظت كما لو كانت تحت وطأة عقار مخدر. كان فهما جافا وكان النوم مازال يلتصق بجفنيها الثقيلتين وهى تهبط الدرج. وجاء صوت السيدة لوبلان المرح يتردد فى ابتهاج:

«صباح الخير.»

والتفتت جولى بدهشة، وعرفت مصدر الصوت عندما رأت السيدة لوبلان قرب باب المطبخ.

وقالت السيدة لوبلان:

«تجدين عصير البرتقال الطازج فى الابريق، والأكواب فى الخزانة اليمنى فوق الحوض. ماذا تريدين للافطار؟»

«بعض الخبز والقهوة.»

وسألتها السيدة لوبلان وهى تضع طبق الخبز أمامها وتعود الى الداخل لتحضر القهوة:

«ما برنامجك اليوم؟»

وأجابت جولى وهى ترتشف عصير البرتقال:

«لاشئ. لقد فكرت فى الذهاب الى المنتزه العام هنا فى سانت مارتنفيل.»

«حسنا، لعلك تذكرين أننى حدثيك عن احد أصدقائنا يمتلك مستعمرة قديمة.»

وحاولت جولى أن تتذكر أسمه، وقالت:

«إتيان.»

«نعم. لقد اتصل بى هاتفا بالامس، وذكرت له أنك تقيمين معنا وتودين رؤية المناظر هنا، وهو يرحب بزيارتك لمستعمرته اليوم.»

وردت جولى:

«اليوم؟ اليوم؟»

لم تكن تعرف ما اذا كانت فى حالة تسمح لها حقيقة بتمضية بعض الوقت مع رجل فرنسى ثرثار كبير فى السن.

«لقد اقترح أن تكونى هناك حوالى العاشرة صابحا قبل أن تشتد وطأة الحر. والحق أننى لم أسأله عن المكان الذى تبحثين عنه، ولكن من المحتمل أنه يعرف شيئا.»

«كاميرون هول؟!»

حسنا لقد حسم الأمر. كانت كاميرون هول السبب وراء حضورها، وكان من الخطأ أن تفوت أول فرصة أتيحت لها للحديث الى شخص ربما يعرف عنها شيئا مفيدا.

«لقد أخبرته أننى واثقة من أنك ستذهبين. أليس كذلك؟»

وأومأت جولى موافقة وهى تقول:

«أوه.. كم أتمنى ذلك.»

وابتسمت لوبلان وقالت:

«ان «المعبد» مستعمرة إتيان يقع على مسافة أميال من المدينة وسأكتب لك التعليمات التى تساعدك فى الوصول الى هناك.»

وعند التاسة والنصف خرجت جولى قاصدة مستعمرة إتيان ولم تكن قد استعادت سرورها وابتهاجها بالقدر الذى عرف عنها. ولم تتخلص من تلك الكآبة حتى بعدما اكتشفت أن تعليمات السيدة لوبلان قادتها الى الطريق الذى قابلت فيه الرجل الغريب، بل لقد غمرها الفرح بحماقة عندما قادتها تلك التعليمات الى منطقة أخرى من الريف فلم تكن راغبة فى أن تعود الى المكان الذى يذكرها بالعينين الزرقاوين مرة أخرى.

كان هناك طريق ترابى يتفرع عن يسارها يحمل لافتة كتب عليها«طريق خاص-ممنوع المرور». وتنهدت جولى فقد كان ذلك الطريق المؤدى الى المكان الذى تريده. وبدأت تحس بنوع من الاهتمام شغلها عن عنائها عندما اقتربت من المكان المقصود.

كان كل ما تستطيع جولى أن تراه من خلال الأشجار الكثيفة مجرد شبح لمبنى كبير أبيض، وكان ذلك هو القصر المقام فى المستعمرة، ولكنه لم يكن يرى بوضوح من الطريق. وكان هناك

عمودان أبيضان يحددان المدخل الذى كان مغلقا بواسطة بوابات حديدية صنعت من قضبان متقاطعة.

وبدأت تحس بوضوح أن العز والابهة قد أدارا ظهرهما الى ذلك القصر. وفكرت فى صاحب المستعمرة إتيان وتوقعت أن يكون شخصا شاذا غريب الأطوار.

واوقفت سيارتها الفولكس واغن على جانب الطريق الضيق، ونزلت واتجهت الى البوابة، وراحت تنظر من خلال القطبان محاولة أن تجد أثرا للحياة. كان المكان يبدو مهجورا.

واستطاعت أن تجد الجرس يتدلى الى جانب أحد العمودين وجذبت الحبل الملتصق به، وتردد صوت الجرس قاطعا الصمت، وكان من المتوقع أن يؤدى ذلك القرع غير المنسجم الى ايقاظ أى شخص نائم. وخطت خطوات لتقف أمام البوابة. حيث رأت رجلا يقترب منها، فبادرت تقول:

«لقد جئت.»

ثم تجمدت الكلمات فى حلقها وهى تحاول أن تحدق فيه. وانتابها الدهشة والحيرة وتابعت:

«أ.. أنت.. أنت إتيان؟»

«فى خدمتك يا آنسة جولى أنطوانيت سمث!»

كانت تتلعثم مثل تلميذ فى المدرسة.

«كنت متأكد الى حد ما. فقد تعرفت على سلة الطعام وعلى طريقة جوزفين فى الطهو، وتأكدت من ذلك عن طريق مكالمة هاتفية معها.»

وفتح قفل البوابة، وحرك ضلفة مصراع الباب ليسمح لها بالدخول. وأحست باندفاع عندما أدركت أن إتيان كان يقتفى أثرها. ولم تستطع أن تخفى سرورها للعثور عليه مرة أخرى. واجتازت البوابة ذات القطبان وما أن خطت نحو الداخل حتى توقفت لتطرح سؤالا خطر لها:

«لماذا لم تخبر السيدة لوبلان بأننا تقابلنا فى اليوم السابق؟»

كان قد أغلق البوابة وراءها ووقف قريبا منها وعينيه الزرقاوين المبتهجتين.

«ولماذا لم تفعلى أنت؟!»

«لم تكن لى الميزة ذاتها التى كانت لك، فلم أكن قادرة على استنتاج المكان الذى تقيم فيه.»

ثم أضافت:

«ثم كيف كان يمكن أن يكون وقع ذلك لو أننى أخبرتها بما حدث لدى لقائنا بعد الظهر فى ذلك اليوم؟»

وضحكت فى تردد، وواصلت:

«كيف كا بامكانى أن أقول مثلا يا سيدة لوبلان، لقد تقاسمت

طعام رحلتى مع رجل له شعر أسود. وعينان زرقاوان تفيضان بالحيوية، وعمره فى الثلاثينيات.. ولكننى لا أعرف أسمه؟!»

وهز رأسه وابتسم، قائلا:

«ليس غريبا. ولكنك لا تقدرين على ذلك ولعل هذا هو السبب الذى منعنى من أن أطلبك بالتليفون.»

«لا تطلبنى؟ لماذا؟»

كان الاضطراب بدأ يظهر على جبهتها، وهما يسيران نحو القصر وقال:

«فى ما مضى كنت أتجنب العذارى المفعمات بالنشاط والحيوية لأنهن فى العادة يجلبن التعقيد الى حياة الانسان. وهى مسألة ضمير.»

«واذن، لماذا طلبتنى؟»

«ربما دفعنى باعث الى ذلك!»

وبدا فى كل حركة من حركاته انه صاحب المستعمرة المهيب.

واستأنف الكلام:

«ولكننى يا جولى سعيد لكونى استسلمت لذلك الباعث.»

ولم تستطع اخفاء احساسها بالسرور. كانت تريد أن تقول انها سعيدة كذلك، ولكن كبرياءها وعدم تأكدها من مشاعره

نحوها منعاها من ذلك.

ومن هنا فضلت ألا تجيب على الاطلاق. وسألها:

«هل أنت آسفة لمجيئك؟»

ولم تحاول أن تكذب. فقد كانت عيناه تلحظان بدقة كل سكنة من سكناتها، فقالت:

«لست آسفة.»

قالتها فى صراحة وقد استجمعت كبرياءها لتواجه عينيه المتفحصتين. وبدا على فمه طيف ابتسامة، وقال:

«انك عظيمة فالصراحة عادة ليست فضيلة تتسم بها النساء.»

وعلقت على الفور:

«ولا الرجال.»

وضحك ضحكة خافتة اقترنت بها ابتسامة عريضة، وأحست جولى بالدفء يغمر وجنتيها. واستأنفت السير على الفور وهى لا تخفى احساسا واضحا بالرجل الذى يسير الى جوارها.

كانت الشجيرات الكثيفة قد بدأت تتضاءل دون أن تلحظ جولى ذلك. وبدأت خطواته تتعثر، ثم توقفت تماما. فقد كان أمامها منظر لا يمكن أن تتغاضى عن رؤيته. كان هناك قصر ضخم يرتفع فى الفخامة. واحتبست أنفاسها. فالأعمدة الضخمة تحيط بالبناء

المربع الشكل وتحمل شرفة فى الطابق الثانى كذلك الافريز الثقيل الذى يزين السقف المسطح. وكان ارتفاعه يثير الرهبة.

وبرغم الشوائب التى أثرت على البناء الذى عمره قرن، كان للمبنى بهاءوه وفخامته اللذان لم يكن يعرف السر وراءهما. وكان طرازه الاغريقى يضفى عليه رونقا ملكيا رغم تهدمه الجزئى.

وحولت جولى بصرها فى النهاية الى إتيان الذى كان يبتسم فى رقة وتعاطف وقد أدرك كم كان المنظر مثيرا، وقال:

«ان المعبد يترك دائما الانطباع ذاته على أى وافد غريب.»

وعاودت النظر الى المستعمرة وأطلقت أنفاسها قائلة:

«يا لسعادتك بامتلاكها.»

وابتسم فى حزن وقال:

«انها هى التى تملكنى.»

كانت عيناه تلاحقان عينى جولى، واستأنفا السير نحو القصر وواصل كلامه:

«وانه لأعز لدى من أى سيدة عرفتها من قبل. لقد شهدتها لأول مرة منذ أربع سنوات ولم تمضى سنة بعدئذ حتى كنت قد استسلمت واشتريتها.»

ونظرت اليه جولى فى شئ من الدهشة، وقالت:

«كنت أظن أن المعبد كان مقر اقامة أسرتك، وأنك قد ورثته عن أجدادك.»

«لو كان كذلك لما سمحت بأن يصل الى الحال التى كان كان عليها عندما اشتريته. لقد كان يستعمل حظيرة للمواشى!!»

ثم وابتسم وقال:

«شكرا لله أن الماشية لا تحاول أن ترتقى السلم.»

وقادها الى السلم وتابع:

«هذا القصر له سلالم حلزونية بيضاوية فاخرة لا تستند الى دعائم خارجية، والدرج مصنوع من الخشب السرو، أما الدرابزين المنقوشة فمن الماهوجنى ولم تستخدم المسامير فى تثبيته، فكل عمود ركب بمفرده فى السلم وفى القضبان.»

وسألته:

«أين تعيش؟»

ولمعت عيناه لسؤالها بشكل أربكها، وتابعت:

«أقصد، يعقل أنك تعيش داخل هذا البيت، أو على الأقل ليس الآن.»

وأخذ يدها وقال:

«تعالى، سأريك أين أعيش.»

وكان دفء المكان يبعث فيها شعورا بالرجفة.

٦-لاينبغى أن ترحل

عاد إتيان ومعه جولى الى الطابق الأرضى عبر الباب الذى دخلا منه، ثم استدار الى اليسار بدلا من أن يسلك الطريق المؤدى الى سيارتها. وبينما كانا يدوران حول القصر اكتشفت جولى مبنى بدا وكأنه نسخة مصغرة عن المعبد. وصاحت بهجة:

www.elromancia.com

«انه نسخة مصغرة ومطابقة للقصر.»

«تعرف عادة باسم الغارسونييرة حيث كان يسكن عادة الشبان غير المتزوجين من الأسرة.»

وجاء صوت إتيان اذ سمعته يقول:

«هل أحضر لك عصيراً منشطاً؟»

وخطا نحو المطبخ. وراحت جولى تذرع الحجرة الصغيرة فى تردد. وأحست بأنهما قد أصبحا فى مكان منعزل مما سبب لها بعض القلق. وشعرت أنه ليس من اللائق أن تكون فى منزل إتيان رغم أنها كانت تتجول فى بيت جون تالبوت بحرية كاملة.

وقدم إتيان اليها الكوب وقال:

«عصير ليمون.»

ونظرت جولى بحذر الى عينيه اللتين أخذتا تضيقان، ورأى يدها ترتجف وهى تتناول الكوب فيما كانت رموشه القاتمة المتجعدة تظلل زرقة عينيه.

«هلا جلسنا فى الخارج؟ ربما تكونين أكثر اطمئنانا هناك.»

قالها وهو يسخر منها، لكن جولى قبلت الاقتراح.

وعندما جلسا فى الكرسى فوق المرج الأخضر فقدت المحادثة بينهما حرارتها. وقنع إتيان بالنظر الى البيت الذى يسيطر على

لماذا ربطت نفسك بهذه المستعمرة التى قلت أنها تأسرك أكثر مما تفعل الأشياء الأخرى.»

«انك تنصتين الى ما يقوله الرجل، وهذه ميزة أخرى نادرة.»

كانت عيناه تتفحصانها بنظرة بطيئة وهما تحدقان. وواصل كلامه:

«أضنانى السفر، وكنت لا أعرف شيئاء عن أجدادى. وهذا المكان كان يحمل اسمى.»

«لاأفهم.»

قالتها وهى ترفع رأسها متسائلة. وضحك وقال:

«سوف اطلعك.»

كان هناك عمود عتيق تنتشر عليه بعض البقع أقيم وحيدا قرب الماء، وكان نظيره يرقد فى كومة من انقاض الحجار وبقايا النقش وسط الأعشاب الطويلة. وفى المكان كان المدخل الأمامى للمستعمرة، وكان يشبه البوابات التى دخلت منها جولى، ولكنه الأن قد تحول الى أطلال. وقادها إتيان الى العمود القائم فى هدوء:

«هذا ما جعلنى أتخذ القرار النهائى بشراء المستعمرة.»

راحت جولى تشاركه التحدق فى العمود حيث كانت هناك حروف باهتة محفورة بقيت رغم فعل الزمن. وكانت متآكلة

لدرجة أن جولى استغرقت بعض الوقت لتقرأ الكلمة:

«كاميرون.»

ونطقتها فى نعومة تكاد لا تسمعها الأذن وهى تنعم النظر خشية أن لا تكون كذلك.

وباتت فى اتجاه القصر المنتصب بكل فخامته بين أشجار البلوط الضخمة قبل أن تستدير الى إتيان ودموع الفرح تملأ عينيها:

«لقد وجدته!»

كان صوتها خاطفا، حادا ومفعما بالعاطفة. وواصلت:

«لقد وجت كاميرون هول.»

وامتدت يدها تحسس العمود والسعادة تغمرها. وقد حيرته بهجتها ونجحت فى أن تجعل تلك البهجة تتدفق وقتا سمح لها بأن تعطيه فكرة عن التفاصيل. وهى تحدق فى الاسم المحفور على العمود.

وتابعت:

«لا أحد ممن سألتهم سمع من قبل عن كاميرون هول. وكنت أخشى الا أجدها على الاطلاق. والآن أجد انها بيتك!»

لم يكن بوسع جولى أن تتحمل مواجهة عينيه، فقد أحست بشئ من الخجل لأنها استجابت للفرحة الشديدة. وسألها فى

رقة:

«هل أشكرك أم أشكر أسلافك؟»

وهمست قائلة:

«الاثنان.»

«ابقى معى لتناول وجبة الظهيرة سويا.»

وترددت، ثم سمعته يقول:

«جولى!»

وأحست به ينجذب اليها، وقالت:

«أود أن أبقى هنا.»

كانت نظرته اليها توحى بأنه ربما حاول أن يصل الى غايته وبطريقة أو بأخرى. وقال:

«أما عن الطعام فانه ما أفكر فيه الآن.»

وسلكا الطريق الذى سلكاه من قبل عائدين الى االقصر. وخطر لجولى أن المنزل الكبير كان ينظر اليها بالرضى والارتياح. وتنشقت نفسا عميقا محاولة أن تستمتع بكل عطر وبكل صوت أحاطا بها فى أسعد لحظات حياتها. فى لم تكتشف كاميرون هول فقط، ولكنها اكتشفت إتيان كذلك. وكان فمها يشرق بابتسامة ذهبية كضوء الشمس. وعندما دخلا المبنى الصغير

الذى يمثل صورة طبق الاصل عن القصر، وقال:

«أمن الضرورى حقا أن نأكل الآن؟»

وقالت فى تلعثم:

«ينبغى أن تقول نعم.»

وأطلت عيناه الزرقاوين وقد ضاقتا.

«انك على صواب بالطبع!»

وابتسم قائلا:

«نسيت أن أخبرك أن عليك أن تساعدى فى اعداد وجبة الظهيرة.»

وأجابت فى مرح:

«اننى ماهرة جدا فى ذلك، اذ حصلت على دبلوم فى الاقتصاد المنزلى.»

«ينبغى اذن أن نستفيد من دراستك بطريقة عملية.»

واتجه إتيان الى الثلاجة وفتح بابها، وقال:

«ما الذى تستطيع خريجة الاقتصاد المنزلى أن تصنعه من بعض الخس وبقايا اللحم وبعض البيض المسلوق وبعض ثمرات الطماطم؟ نريد شيئا لذيذ المذاق، فهذا كل ما لدينا من الطعام.»

كانت تستطيع أن تضحك فى بساطة الآن. وقالت:

«اذا استطعت أن تحضر شيئا من الزيت والخل وبعض البهارات امكننى أن أعد طبق سلطة ممتازا.»

وأجابها مشجعا:

«انه الطبق المفضل لدى، واتركى لى الباقى.»

ولم تجد جولى وقتا لتعرف كيف استطاع إتيان أن يجهز كل شئ لأنها كانت مشغولة بعملها الروتينى. وكان مذاق واحد من المتبل كفيلا بأن يثير الشهية. واستطاع هو أن يحول الحديث بحكمة الى المشروعات لترميم المستعمرة.

وكانت جولى تبدى اهتماما واضحا بالحديث، ومع ذلك كانت بين حين والأخر تختلس النظر الى بريق شعره الأسود أو الى التباين الحاد بين عينيه الزرقاوين وبين قامته وملامحه الاخرى. ولم تستطع أن تتابع مشروعاته.

قال:

«.. وفى الأيام الممطرة كنت أعنى باكمال الخشب اللازم لأريكة على الطراز الفيكتورى ولكرسيين ينسجمان معها.»

وكان خلال ذلك يحتسى شرابا يصاحب الوجبة التى يتناولها. وواصل:

«سوف يحتاج الأمر الى طبقة أخرى فقط من الطلاء وتكتمل

الأريكة. وتبقى فقط اعادة التنجيد، وسوف يكلفنى انجازه الكثير.»

وصاحت جولى.»

«التنجيد.. انه هوايتى.»

ونظر إتيان اليها نظرة جعلتها تحمر خجلا، فلم تكن تقصد وضعه فى موقف يجعله يطلب المساعدة فى هذا العمل. وقالت بسرعة:

«اننى ماهرة حقا فى التنجيد، وكنت أكسب نقودا خلال فترة الدراسة من هذا العمل.»

«أنا لا أشك فى قدرتك ولكننى أتذكر أنك قلت انك هنا فقط فى اجازة.»

وانتفخ صدرها بالبهجة اذ أدركت أنه لم يكن يركز على التنجيد قدر تركيزه على اعتزامها الرحيل. أى انه يركز عليها هى فقالت:

«كنت قد خططت للاقامة ثلاثة أسابيع، أو الى أن تنفذ نقودى.»

ولمع فى عينيه ضوء خطير وهو يقول:

«فى وسعى أن أعوضك وقتك اذا كان بامكانك البقاء فترة أطول.»

وضحكت فيما يداها تعبثان بأصابعها وقالت:

«ربما تندم على ذلك العرض.»

وتردد ثم قال:

«ألا يكون مخجلا أن تضطرى الى الرحيل بينما لم يمض على اكتشافك لكاميرون هول غير وقت قصير؟»

وفكرت جولى فى صمت ثم قالت:

«وأنت؟ ماذا عنك؟»

وبدأت يداها تضطربان، وأسرعت تشغلها بتكدس الأطباق لتحملها الى حوض الغسيل.

وحرصت على أن تلتزم بالحديث حول الموضوع الذى يبقى علاقتها فى منتصف الطريق. وقالت:

«اننى سعيدة لأن كاميرون هول لم يتم ترميمها.»

وكانت تحرص على أن يظل صوتها رقيقا وهى تحمل الأطباق الى الحوض. وتابعت:

«لأن بقاءها على ما هى يحفظ لها الطابع الذى كانت عليه منذ زمن بعيد.»

والتفتت موجهة الحديث الى إتيان لكنها وجدته واقفا بجانبها مباشرة.

وجاءت كلملته تثير فى عينيها لمحات من الألم وهو يقول:

«انك انسانة تحبين الحياة العائلية يا جولى، وأرجو أن تعرفى أن الزواج لم يكن فى يوم جزءا من مشروعاتى.»

«ما الذى تنتظر منى أن أرد به؟»

قالت ذلك وهى تحبس دموعا كادت تقفز الى مقلتيها. وأجاب فى حدة قاطعة بينما كانت عيناه تسلطان نارهما االباردة على وجهها.

«لا أريد للنفاق أن يطل برأسه القبيح.»

«ومع ذلك فمن حقى أن أعرف أننى لست طفلة.»

«لا. انك فتاة كاملة، ولقد اكتشفت ذلك.»

وبدأت تتحرك حوله فى شئ من الزهو وهى تجمع بقية الأطباق.

«وبالرغم من تعقلى الذى يناديني أن ادعك تخرجين من هنا، فان عقلى يلح بأن أجد الأسباب لبقائك.»

وأحست جولى بركبتيها تتهاويان، وأجبرت نفسها أن تستدير نحو الأطباق المتسخة فى الحوض.

وقال فى صوت أجش:

«هل تعرفين أن كلمة جولى تعنى جميلة فى الفرنسية؟»

«وماذا عن اسم إتيان؟»

نظر إليها قائلا:

«استيفن.»

وأحست بشئ من الخوف توجه الى قلبها. وانتابها فزع كبير اذ تذكرت ميشيل وغى يتحدثان شخص يدعى استيفين.

كان ينظر اليها بشئ من الحيرة والحذر، وقال:

«من المؤكد أن السيدة لوبلان أخبرتك من أنا. ان اسمى كاميرون، ستيف كاميرون.»

«لقد كانت تسميك إتيان.»

قالتها جولى فى هدوء وتذكرت ما حدثتها عنه ميشيل فى تحذير اذا قالت لها:

ان النار تشتعل، واذا ما اقتربت من ستيف فستحترقين.

وكانت أسرة لوبلان تعتبره محجوزا لكلودين لوبلان.

واختتم الحديث قائلا:

«لقد كانت دائما تسمينى إتيان.»

٧-الثعبان والملكة

وبدأت بعض الأسرار تتكشف امام جولى. فقد كان غى قد ألمح أن ستيف خصم هائل. ولم يكن ذلك الا بعض الحقيقة عنه. وقد خبرت بنفسها كيف انهار دفاعها أمام أولى مداعباته. ولم يكن غريبا أن يكون أسم كاميرون على العمود وراء شرائه المستعمرة.

ونظرت جولى الى إتيان وقد أصبح الآن ستيف كاميرون، وضحكت فى اضطراب وقالت:

«أشعر بغباء كبير. فقد تحدث غى وميشيل عنك باسم ستيف بينما تحدثت السيدة لوبلان عن إتيان. ولقد ظننت أننى سأقابل رجلا يميل الى سن أكبر.»

«أستطيع أن أفهم كون غى يتحدث كيفما شاء ليشوه سمعتى لديك. ولكن لماذا تفعل ميشيل ذلك؟»

«ليس لغى مأرب فى. أما ميشيل فأنا التى سألتها عنك، وقد وصفتك لى فقط.»

وابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

«لا تقولى أن ميشيل تعتبرنى خطرا.»

وأجابت على الفور:

«ليس عليها.»

«هل أنا خطر عليك؟»

كانت تدرك بالفعل أن ستيف كاميرون يعنى خطرا بالنسبة اليها، ولكنها لم تكن على استعداد للبوح باحساسها. وقالت:

«لا تكن سخيفا، فأنا واثقة من أنك لا يمكن أن تؤذينى.»

وأخذت تجمع بقية الأطباق وتابعت:

«هل أخبرتك السيدة لوبلان ان كلودين ستصل يوم السبت المقبل»

«نعم. ذكرت ذلك.»

قال ذلك وهو يتناول الأطباق من يدها ليضعها فى الحوض. واضاف:

«أتركيها، وتعالى شاهدى الأثاث الذى كدت أنتهى منه.»

ثم رفعت رأسها فى تحد، قائلة:

«أظن أن هناك علاقة ما بينك وبين كلودين؟»

كانت تظن أنها قد فاجأته، ولكنه اجاب ببساطة:

«ان لكلودين الفضل فى وجودى هنا.»

«ماذا تعنى؟»

«لقد تقابلنا فى نيوأورليانز، ودعتنى الى زيارة والديها فرافقتها الى منزلها وجاءت بى الى هنا لنقضى يوما وكانت ترسم لوحة للمستعمرة التى اشتريتها فى ما بعد.»

وطرحت عليه سؤالا آخر:

«ماذا تعمل؟»

«أعيش. أزرع قصب السكر ويدر على دخلا أسدد به رهن العقار وأدخل بعض التحسينات على القصر. وهناك حديقة خضروات تنتج طوال السنة، ولدى بقرة مدرة للبن تعطينى عجلا صغيرا للذبح كل عام. وليست لدى رغبة فى الثروة أو الجاه. هل

تشعرين بالاحباط؟»

«كلا، ولكنك من النوع الذى يمكن أن ينجح فى أى شئ.»

وتجنب التعليق فى لباقة.

وتنهدت عن الأسلاف قائلة::

«أتظن أنهم كانوا يعيشون حقا فى ترف واسراف كما سمعنا؟»

وأجاب ستيف:

«لم تكن حياتهم كلها نوما ولهوا، والا لما استطاع مالك المستعمرة أن يحتفظ بها للعام التالى. كانوا يديرون أعمالا كثيرة فى مستعمراتهم لكى يحصلوا على عائد مربح، ولو فشل المحصول عامين متواليين لفقد الواحد منهم عمله، واذا نجح لفصول عدة متوالية، فانه يصبح امبراطور صغيرا.»

«ملك السكر!»

وابتسمت ابتسامة أظهرت بعض الخطوط الغائرة على وجهها:

«كان ملاك المستعمرات قليلين، ولم يزد عدد من كان يمتلك الرقيق عن ثلث السكان فى لويزيانا ذلك الوقت. ولكن الأبهة والفخامة تشدان الانتباه أكثر من صراعات الفقراء التى لاطائل وراءها.»

«انك تجعلنى أحس بالذنب لأننى أعبر عن اعجابى بحياة ملاك المستعمرات.»

وقال مبتسما:

«مازلت شابة وليس هناك شئ أكثر شاعرية من أن يتخيل الانسان ايام المستعمرات الذهبية.»

ثم سألها فى رقة:

«هل تعلمين أن الساعة قد تجاوزت الثالثة بل قاربت الرابعة؟»

والتفتت نحوه فى دهشة فيما أحست بشئ من الحرج والارتباك. لم تكن تتخيل أن الوقت قد مضى بمثل تلك السرعة، وتعثرت وهى تبحث عن الكلمات:

«من الأفضل.. أن.. أن أذ.. أذهب.»

وراحت تنفض ملابسها فى شئ من العصبية وهى تحاول أن تخفى وجهها من عينيه لكنه قال:

«لا يضايقنى أن تبقى معى طوال الليل. لكننى لا أود أن تضعنى جوزفين فى القائمة السوداء.»

وزاد ارتباكها عن ذى قبل وقالت:

«أعرف أنها تنتظر عودتى لتناول العشاء معا.»

وأكملت:

«اننى مسرورة كونك ذكرتنى بمرور الوقت.»

«حقا؟!»

شعرت بحنانه وهو يقول:

«دعينى ارافقك الى السيارة.»

وعندما اطمأن ستيف كاميرون بعد ذلك بدقائق، الى انها قد جلست فى سلام خلف عجلة القيادة فى الفولكس واغن الحمراء، انحنى قائلا:

«لك أن تصدقينى هذه المرة اذا ما قلت لك: الى اللقاء يا جولى!»

ونطق كلمتى الى اللقاء بالفرنسية..

عندما دخلت منزل لوبلان بدأت تحس بصدى مقابلتها مع ستيف كاميرون المعروف باسم إتيان. وبدأت السيدة لوبلان باستفسارها عن مدى استمتاعها بفترة ما بعد الظهيرة مع إتيان. أما غى فوقف فى المدخل يراقب اكتئاب ردود فعل جولى على تلك الزيارة. وحاولت أن تخفف من ابتهاجها وهى تقول أن المعبد هو كاميرون هول الذى تبحث عنه. وظنت السيدة لوبلان أن تأخرها هناك كان لذلك السبب وانتهزت أول فرصة لتصعد الى حجرتها فتستعيد نشاطها. وتبعها غى الى الدرج وهو يقول:

«ولكن لم تذكرى شيئا عن انطباعاتك عن الفارس ستيف

كاميرون؟»

واذدادت قبضتها على درابزين السلم قبل أن تأخذ أنفاسها. وقالت:

«كان فى وسعك أن تحدثنى عن وسامته الجذابة. ثم ان ستيف وإتيان شخص واحد. كنت أظن أننى سألتقى برجل فرنسى كبير فى السن.»

«وهل حدث لك ذلك؟»

«حدث لى ماذا؟»

«هل أسرتك وسامته؟»

وأجابت فى غموض:

«لقد صدمت. ولم أدرك فى أول الأمر أنه ستيف الذى حدثتنى عنه، بل لم أكن أعرف أن ستيف فى الفرنسية تعنى إتيان.»

وأضاف يسألها وهى تتجه الى أعلى السلم:

«هل كنت على صواب فيما حدثتك عنه؟»

وأحست بشئ من الضيق لسؤاله المتطفل، واستدارت لتواجهه:

«ماذا تريد يا غى؟ أتريد أن تستكشف ما اذا كان حاول اجتذابى أم لا..؟»

وهمهم غى وهو يضرب الحاجز الخشبى بقبضته:

«لم أشك لحظة أن رجلا آخر يستطيع أن يفعل بك ذلك.»

وتنهدت فى غضب، وقالت:

«أوه.. هكذا يا غى هل تصدق حقا ما قلته الآن؟»

«كلا، فان ستيف من الذكاء بحيث لا يجازف فى الكشف عن نيته فى المرة الأولى. ولكننى على ثقة من أنه لابد أن يكون قد أسر بجمالك.»

«لقد نشأت فى مزرعة، وأعرف قدرا لا بأس به عن الطيور الوديعة وعن النمل الذى يلسع. وبعد ثلاث سنوات قضيتها فى الكلية أستطيع أن أتصرف فى موقف أو آخر»

كانت تلك أكذوبة صريحة ولكن جولى كانت فى حالة من الغضب جعلتها لا تكترث. وابتسم ابتسامة تعكس السخرية والاعتداد بالنفس قائلا:

«اذا فقد كنت على صواب. بدأ الحصار بالفعل.»

«ولكن خطوطى الدفاعية لم تنكسر. ولن تنكسر.»

وخرج صوته فيما يشبه الرجاء، وهو يقول:

«اسمعى يا جولى، اننى أحاول فقط أن أحذرك حتى لا يلحق بك الضرر. لقد رأيت ستيف يغوى الفتيات من قبل.»

ولم تفوت جولى فرصة السخرية منه، وقالت:

«كنت أظن أن من يفعل ذلك هو أنت.»

سحبت أنفاسها بعمق، وقالت:

«افهم ما تحاول أن توضحه، ولكننى راشدة وأستطيع أن أكون وجهة نظرى وأصدر أحكامى. وكل ما خرجت به أن ستيف شخص جذاب.»

ولم تعطى لغى فرصة الرد، والتفتت وصعدت الدرج فى سرعة. ولكنه كان مصرا على أن تكون كلمته الأخيرة:

«وكذلك ثعبان الكوبرا!»

لم يبذل ستيف أية محاولة للاتصال بها يوم الجمعة التالى.

وأشرق صباح السبت، وكان كل أمل لديها بأن يتصل بها قد اختفى مع ظلمة الليل السابق. وعندما اقترح غى أن يمضيا اليوم معا قبلت جولى اقتراحه فى بهجة. وعندما عادت الى منزل أسرة لوبلان فى وقت متأخر من ذلك المساء كانت تحس بالانتعاش الكامل.

كانت الأسرة كلها تبدو فى حالة من المرح، وكان من الطبيعى أن تشارك جولى فى ذلك.

وكانت جولى الوحيدة التى رأت سيارة تصعد الى ممر السيارات ثم تتوقف قرب الباب الخلفى. وشدها حب الاستطلاع

التافه الى النافذة لترى من القادم الجديد. ورأت فتاة فى بنطلون أبيض وبلوزة حمراء تخرج من مقعد السائق مسرعة وعلى رأها عصابة صفراء منقوشة بالزهور تضم الكتل الطويلة من الشعر الأسود بعيدا عن وجهها لتجعله يتهدل كالشلال على ظهرها. وتحركت الفتاة برشاقة ماكرة تجاه مؤخرة السيارة وشفتاها الحمراوان تتحركان فى سعادة غامرة ولم يكن صوتها مسموعا.

وشحب وجه جولى عندما خرج من الجانب المقابل من السيارة ستيف وسار هو الآخر بأتجاه مؤخرة السيارة.

وثارت الذكريات. كانت كلودين آتية الى البيت وهى التى تعتبر ستيف كاميرون ملكا خاصا لها. وكان ستيف معها يخرج الحقائب والأمتعة من مؤخرة السيارة. ووقفت جولى تراقب تبادل الابتسامات وهى تحس بالخيانة، بينما كلودين تنظم الحقائب والامتعة. وبدا ستيف وكأنه الصبى المكلف حمل الأمتعة فى الفندق ينقل بعضها فى يديه وبعضها تحت ذراعيه.

كانت جولى على استعدا لترك النافذة. ولكن المشهد لم يكن قد اكتمل بعد. ورأت كلودين تتحرك لتقف اقرب الى ستيف، وأحست جولى بشئ من الغثيان المؤلم تحرك فى داخلها بعنف ولم تر أكثر، فقد حجبت الدموع عينيها، وتركت النافذة على عجل، وجففت عينيها بمؤخرة راحة يدها. وقررت ألا تتيح له الفرصة ليراها وهى تبكى. وحمدت الله أنه أتاح لها الفرصة

لرؤية ذلك المشهد، فلم يعد هناك أدنى شك فى أن آمالها كانت بلهاء.

وأسرعت الى الردهة حتى لا تكون الشخص الوحيد فى الحجرة عندما تدخل كلودين ومعها ستيف. ووجدت غى فى غرفة الطعام منحنيا على الصحيفة. وتظاهرت بشئ مناقض تماما لما كان يعتمل فى داخلها. وسألته:

«هل وجدت شيئا يثير اهتمامك.»

كانت جولى تتفحص الصحيفة فى اهتمام عندما سمع صوت ضحك وأبواب تفتح معلنة وصول كلودين وستيف. وتنهد غى ونظر الى جولى فى استسلام قائلا:

«عادت ملكة النحل الى الخلية.»

وأخذ يد جولى على مضض كبير ليتجه بها الى الردهة.

ورغم أن غى لم يبد حماسة واضحة فان حماسة والديه كانت وافرة وهما يرحبان بعودة ابنتها. ووقف غى وجولى الى الخلف ينتظران حتى تنتهى دهشة اللقاء. وأحست جولى بارتياح لانها كسبت بضع دقائق قبل أن تقف أمام ستيف وجها لوجه. وكان غى قد أحكم قبضة يده على يدها وجذبها لتلتصق به فى اللحظات التى لمح فيها سيف. وأحست جولى بارتياح كبير لذلك.

كانت جولى على ثقة كبيرة من أنهما لم يحدثا ما يثير

الاهتمام. ومع ذلك التفت ستيف وراءه وكأنه استفاد من حاسة سادسة لديه. وبدا وجهه بلا انفعال رغم أنه كان يختفى بعض الفكاهة تكمن فى أعماق عينيه الزرقاوين فى اخضرار وهو يحدق بأتجاه جولى وغى فى جوارها. وسرعان ما طغت على رقبتها ومضة من الخجل لم تكن تريد أن تبوح بها.

وقبل أن تجد جولى الفرصة لتعبر عن ضيقها من الطريقة التى كانت عينا ستيف تحدقان بها نحوها، جاء اميل لوبلان يحييه بالفرنسية. واستمر الحديث بينهما بعض الوقت فى اللغة ذاتها.

«هل هذه فتاتك الجديدة يا غى.»

كان للسؤال وقع حاد جعل جولى تحول نظراتها بقسوة من ستيف الى الفتاة التى تواجهها. كانت عيناها بلونهما البنى الشديد القتامة تتفحصانها باحتقار زائد. وكانت ثقة جولى بنفسها قد انكمشت عندما نظرت الى كلودين ذات الجمال الأخاذ. كانت لها نظرات ساحرة وكانت ملامحها خالية من أى عيب كأنها صنعت من العاج فى تباين مع شعرها الأسود وحاجبيها الأسودين ورموشها الطويلة التى لم تكن لمواد التجميل أثر فى جمالها الطبيعى. وكانت أقراط ذهبية كبيرة تتدلى من أذنيها الصغيرتين لتضفى عليا مظهرا غريبا كمظهر الغجر. وبدت كلودين وكأنها نبات استوائى له ازهار الربيع تنتصب الى

جوارها.

اتجهت كلودين الى ستيف وهمست تقول:

«سوف انصرف لدقائق قليلة.»

وكانت قد لمحت فى زاوية عينيها كيف كان ستيف ينصت الى كلودين فى اهتمام كامل. وقال غى فى هدوء وحزم:

«سوف نتناول الطعام فى مكان ما.»

ولم تستطع جولى أن تمنع ابتسامة الرضى التى ارتسمت على فمها بينما بدأت كلودين توجه اهتمامها فجأة اليها وقد أحست بعزمها على الخروج وقالت:

«هل تخرجان معا الى مكان ما؟»

ولكن جولى تركت لغى أن يوضح الموقف. وتخلصت من نظرة ستيف التى كانت منصبة عليها.

٨-فتاة فى زى الغجر

كانت الشمس تغرق الفراش، وقد نثرت أشعتها الذهبية على الجسد النائم. مما جعل جولى تتململ بعض الشئ، وراح جفناها ينقبضان فى وهج الشمس. كانت هناك وردة متفتحة تستقر على غطاء الوسادة الأبيض وحمرتها القانية تتباين فى حدة مع اللون الأبيض وريقاتها الأرجوانية الضاربة الى الحمرة.

كان هناك خاطران يلحان عليها فى آن واحد: حديث ستيف

www.elromancia.com

عن العادة القديمة لدى ملاك المستعمرات فى ايقاظ الضيوف. ولمحت شبحا فى المنطقة القريبة من النافذة. كان ستيف وسألته:

«كيف دخلت الى هنا؟»

«من الباب.»

ثم أضاف قائلا:

«ساسمح لك بخمس عشرة دقيقة لتلحقى بى الى المطبخ: والا رجعت مرة ثانية.»

غسلت وجهها على عجل وأرتدت ملابسها، وقالت فى شئ من التحدى وهى تدخل الحجرة:

«نعم، ها أنا هنا.»

«لقد صببت لك بعض القهوة.»

كانت عيناه الزرقاوان تحومان حولها فى ألفة وتبديان الاعجاب بالبنطلون الأزرق واالبلوزة المنقطة التى كانت تنسجم معه. ولكن جولى جعلت ملامحها تبدو وكأنها تجمدت رافضة أن تسمح لدفء نظراته بأن يذيب خطوطها الدفاعية. وكان ذلك امرا صعبا، فقد كانت أعصابها تهتز لأدنى خفقة.

وسألها ستيف وقد خشى أن يسود الصمت بينما فترة طويلة:

«هل وجدت قماشا يعجبك؟»

واصطنعت جولى غضبا يعبر عن الاضطراب وقالت:

«قماش؟!»

وألمح يقول:

«لاعادة تنجيد الأريكة والكراس.»

وقالت كاذبة:

«لقد نسيت كل ما يتصل بذلك.

«حقا؟!»

كان ذكاؤه الماكر قد دفع الى وجنتيها خفقة من الدماء سرعان ما تقهقرت، وتابع يقول:

«أعتقد أن بامكاننا أن نقوم سويا بالبحث اليوم. هذا اذا كنت مازلت على استعداد للمعاونة.»

ورفعت جولى رأسها قليلا لتقابل نظرته بكل البرود الذى تستطيع أن تتظاهر به، وقالت:

«تستطيع كلودين أن تحسن اختيار القماش أفضل منى. لماذا لا تطلب اليها أن تعاونك؟»

«لقد طلبت منك أنت.»

وأجابت فى حدة وسرعة قبل أن تقاوم رغبتها فى السخرية منه:

«أعرف. ولكن ذلك كان قبل أن تعود كلودين.»

وبدت على وجهه ابتسامة عكست بوضوح أنه كان يسخر منها وهو يقول:

«ان ما تحاولين قوله هو أنك لا تريدين أن تتعدى على أملاك الغير. أليس كذلك؟»

وأجابت فى حذر:

«شئ من ذلك.»

«لكى أصحح لك الموقف، اقول اننى لست ملكا لأحد. لقد تعارفنا، أنا وكلودين، منذ فترة طويلة. وهناك كثير من أوجه الاتفاق بيننا، ولكننى لا أؤثر فى حياتها. والآن هل تريدين أن تمضى اليوم معى أم أنك مصرة على قيمك البيورتيانية وتبقين وحدك؟»

«لقد بدا أن كلودين ولهى بك. وقد تصرفت معها كما لو كنت معجبا بها. وكان من الطبيعى أن أفترض أنكما متحابان، ولست وحدى أفكر بهذه الطريقة، فهكذا يعتقد غى وميشيل.»

«أعتقد أنك تحملين كلمات ميشيل أكثر مما تحتمل. أما عن غى فانه يحاول أن يحمى جانبيه.»

ونهض واستدار حول المائدة، وتابع يقول:

«هيا .. لنخرج.»

واعترضت وهو يجذب كرسيها بعيدا عن المائدة وقالت:

«لم أقل اننى سأخرج.»

وامسك ذراعها وسار بها نحو الباب الخلفى وهو يقول:

«بعد تلك الطريقة الخرقاء التى تصرفت بها فان كبرياءك لن يسمح لك بأن تستسلمى، وعلى أن أدفعك الى اصطحابى.»

وابتسم وهو ينظر اليها، ابتسامة عريضة وتابع:

«ماذا يقول غى لو رأى تلك اللمسة المسيطرة أو اليد الحديدية فى قفاز من الحرير؟»

وعلقت جولى وهى تسمع الباب ينغلق خلفها:

«من المحتمل أن يسميها اختطافا.»

وابتسم ستيف قائلا:

«اذن سأجعلك تحت رحمتى طيلة النهار.»

وفتح باب سيارته الستيشن واغن وساعد جولى على الركوب. وسألته فى هدوء عندما جلس وراء عجلة القيادة:

«وهل ستكون...؟»

«سأكون ماذا؟»

وأجابت فى صوت واهن؟

«رحيما.»

وتوقف ستيف لحظة قبل أن يدير محرك السيارة، ونظر اليها فى صمت كثيف ثم قال:

«اذا وعدت بألا تتركى هاتين العينين البنيتين الناعمتين تسحراننى. انهما جديرتان بأن تفقدا أى رجل ما بقى لديه من الاتزان.»

والتفتت جولى بعيدا وهى حائرة فى ما اذا كان يعرف مدى خطورة عينيه الزرقاوين القاتمتين، وأنها كم تمنت أن تغرق نفسها فى أعماقها. ومع ذلك كانت تشعر بشئ من الاستثارة اذ اكتشفت أن فيها شيئا يثير أرقه. ولكن هل كان ذلك الشئ سلاحا فعالا أم مركزا للهجوم؟ وهى تعلم أن خطوطها الدفاعية واهية.

وعندما استدار ستيف بالسيارة نحو الاتجاه المضاد والمقابل لسوق مدينة سانت مارتنفيل، نظرت اليه جولى فى استغراب، وقالت:

«الى أين؟»

وغض النظر عن الطريق لحظة لينظر اليها مظمئنا قائلا:

«الى نيو ايبيريا. أعتقد أننا سنجد هناك تشكيلة اكبر من أقمشة التنجيد لنختار منها الى جانب ما نتمتع به من مناظر جميلة. هل ذهبت الى هناك من قبل؟»

وأجابت وهى تذكر كيف كانت رحلتها السابقة ثقيلة بعد الحديث غير المريح مع كلودين فى ذلك الصباح:

«لقد ذهبت الى مستعمرة تسمى الاشباح على نهر تشيه. كنت هناك بالأمس.»

«وهل أعجبك المكان؟»

«أوه، نعم! كان جميلا للغاية وخاصة المروج الخضراء المطلة على الرافد. ولقد لاحظت كذلك أن واجهة المنزل تطل على الطريق لا على نهر تشيه.»

وحاول ستيف أن يفسر ذلك فقال:

«ذلك لأن القافلة الاسبانية كانت تمر من هناك مما جعلهم يعكسون النمط العادى.»

وسألها:

«وهل خرجت الى جزيرة آفرى؟»

وهزت رأسها قائلة:

«لا.»

«حسنا. سوف نذهب فى السيارة الى هناك بعد وجبة الظهيرة.»

وعاد يوجه انتباهه الى الطريق.»

ووجدت جولى نفسها تستند الى مقعدها فى قناعة ورضى. كانت تحس ببهجة عارمة وهى تجلس فى مقعدها الى جانب ستيف وتعلم أنها ستمضى النهار كله معه وتحت تصرفه. ولم يكن ستيف يعرف ماذا يعنى لها الوقت الذى يقضيه معها.

ووجدا فى المتجر الثانى الذى دخلاه فى نيو ايبيريا خامة القماش التى كانت جولى تريدها للأريكة والكراسى. كانت من المخمل الناعم الأخضر الفاتح، تنسجم تماما مع خشب الجوز

القاتم. ولسوء الحظ لم تكن هناك كمية كافية لقطع الأثاث الثلاث. وأكد المشرف على المحل أن فى وسعه ان يستحضر لهما ما يطلبانه من هذه الخامة فى القريب جداً مع الطلبية الاتية.

وقالت جولى موجهة الكلام الى ستيف بلهجة مطمئنة:

«أفضل أن ننتظر حتى يصل القماش الجديد، فمن المحتمل أن تختلف درجة اللون.»

ووافق ستيف، وقال:

«أنت على صواب.»

وصحب ستيف جولى الى السيارة ثانية بعدما تأكد من أن الشحنة المقبلة من القماش ستصل فى أقل من أسبوع.

ونظر ستيف الى ساعته الذهبية، وقال:

«لا زالت أمامنا ساعة حتى يحين موعد وجبة الظهيرة. ولكن بما أنك لم تفطرى فلماذا لا نأكل الآن؟»

واعترفت جولى قائلة:

«بدأت أحس بالجوع.»

«اذا كنت تحبين الطعام المكسيكى، فاننى أعرف مطعما يقدم وجبة شهية من تلك الأطباق.»

«فكرة عظيمة.»

كان مطعم رافييل صغيرا يقع فى أحد الشوارع الجانبية، وبدت زخارفه من الداخل مزيجا من البساطة والاناقة توحى بجو كلاسيكى منعش.

وما كادا يجلسان الى إحدى الموائد حتى دخل الى الصالة رجل داكن البشرة كبير السن. وما ان لمح ستيف حتى أشرق وجهه بابتسامة، وخطا نحوهما يتهلل قائلا:

«ايستبان!»

وأتبعها بفيض من الحديث فى الأسبانية لم تستطع جولى أن تدرك مضمونه، واستطاعت أن تفهم أن كلمة إتيان هى ايستيبان. وعرفت كذلك أن الرجل الذى بادرها بالتحية هو رافييل صاحب المطعم. وأدركت أن ستيف كان يتردد على مطعم رافييل كثيرا. قام ستيف بالتعريف قائلا:

«رافييل.. هذه هى مس جولى سمث. انها تمضى اجازتها هنا فى لويزيانا.»

والتفت الى جولى:

«أود أن أقدم لك رافاييل الفاريز وهو صديق حميم لى.»

ومدت يدها الى الرجل الأكبر سنا تقول:

«يوم طيب يا سنيور الفاريز.»

قالتها بالأسبانية، وانحنى الرجل برشاقة على يدها وهو يقول:

«أوه.. هل تتكلمين الأسبانية يا سنيوريتا؟»

وأجابت جولى:

«انها مجرد كلمات بسيطة جداً مثل أهلا وسهلا.. وداعا.. كيف حالك؟»

وابتسم السنيور الفاريز وقال:

«انها لغة جميلة للمحبين. ينبغى أن يقوم ايستبان بتعليمك هذه اللغة.»

والقت عيناه على ستيف، الذى كان يراقبها فى سرور، نظرة ذات معنى وهو يقول فى الاسبانية:

«انه استاذ حاذق.»

وتدخل ستيف ليمنع التمادى فى الملاحظات الشخصية وأخبر رافييل عن الاصناف التى يفضلها للوجبة الخفيفة. ولم تهتم جولى كثيرا بأن تختار شيئا وتركت ستيف يختار لها بينما أخذت أفكارها تشرد. وعندما غادر رافييل المائدة قال ستيف:

«تبدين شاردة! ما الذى يضايقك؟»

«كنت أخمن أنك تتكلم الفرنسية بطلاقة. والآن تتكلم الأسبانية!»

«هل يدفعك حب الاستطلاع!»

«نعم. أعرف الآن أنك تمتلك مستعمرة. ولكن قبل ذلك لابد

أنك تعلمت تلك اللغات المختلفة قبل أن تأتى الى هنا. اننى أحاول أن أتخيل: ماذا كان عملك السابق؟»

«لقد عملت ضابطا على سفينة شحن غير نظامية مدة أحد عشر عاما.»

«وماذا تعنى سفينة الشحن غير النظامية؟»

«انها السفينة التى ليس لها مرفأ ثابت. فقد تحمل شحنة الحبوب من نيوأورليانز الى اليابان مثلا، ومن هناك قد تحمل شحنة الى الهند وهكذا. وقد يمضى على السفينة عامان أو ثلاثة قبل أن تعود الى الميناء نفسه.»

«وهذا هو السر فى أنك تعرف لغات عديدة؟»

«الواقع أننى أتكلم أربع لغات الى جانب الانجليزية. انها الايطالية والألمانية فضلا عن الفرنسية والأسبانية.»

ونظرت اليه جولى باستغراب من خلال رموشها وهى تقول:

«قلت أحد عشر عاما. لابد أنك كنت صغير السن للغاية!»

«كان عمرى سبعة عشر عاما وكنت يتيما، ولم يكن لى أقارب من الدرجة الأولى أو الثانية. وشدتنى حياة البحر المليئة بالمخاطر والشاعرية.

كنت فى ذلك الوقت أعيش فى الشمال فى بوسطن، وحلمت بالهرب الى جزيرة فى البحار الجنوبية. وترددت على أرصفة شحن السفن عدة اشهر قبل أن يرفق بى قبطان تلك السفينة

غير النظامية ويقبل قيدى ضمن طاقم سفينته، وعاملنى كأب ولم تكن له هو نفسه أسرة. وظللت أبحر معه حتى توفى منذ حوالى خمس سنوات.»

«وكان ذلك هو التاريخ الذى قدمت فيه الى هنا؟»

«لقد عدت الى الولايات المتحدت وانتهى بى المطاف فى نيوأورليانز حيث قابلت كلودين. كنت قد مللت التجول بالرغم من أننى عشقت حياة البحر.»

وومضت عيناه نحوها عبر المائدة، وقال:

«هل تريدين أن تسمعى المزيد عن الماضى السئ؟!»

«حسنا! لقد أغفلت ذكر الفتيات اللائى تعرفت بهن فى الموانى المختلفة.»

وابتسامة رقيقة واصلت:

«لابد أنك خلفت وراءك صفا من القلوب المنكسرة يمتد من أقصى الأرض الى أقصاها.»

«لن أحدثك عن النساء اللاتى كنت أقابلهن من فئات لا تعرف معنى انكسار القلب. على أن النساء المحترمات لا يترددن على الأماكن التى يقصدها البحارة للمتعة.»

وابتسمت جولى فى اشراق عندما اقترب الجارسون ومعه الطعام وقالت:

«لقد كنت على صواب الى حد ما عندما شبهتك بالقرصان.»

وقال مازحا:

«أنت أولى بالقرط الذهبى منى. ولا بد أن لاأتذكر فأعطيك اياه. سوف يبدو عليك أكثر رونقا.»

«لا أعرف. وعلى أية حال فان الفتاة لا تلبس قرطا واحدا فى احدى أذنيها، والأفضل أن تحتفظ به كتذكار.»

وسألها ستيف فى هدوء:

«ألا تريدين تذكارا عن الوقت الذى نقضيه سويا؟»

وأخذها السؤال على غرة، فأجابت فى حدة:

«لا.»

كانت تعرف تماما أن ذكرياتها مع ستيف تظل حية دون تذكار. وحاولت أن تبدل حدتها الى مرح، ولكن ذلك لم يخل من زيف وعصبية. وقالت:

«أرجو أن تحتفظ به لفتاة أخرى قد تبدو فى زى أكثر جمالا مثل زى الغجر.»

وهز ستيف كتفيه فى شئ من عدم الاكتراث، وركز على الطعام وهو يقول:

«قولى ما يحلو لك.»

٩-لا تلوموا القمر

كان المساء حالك السواد عندما استأنف ستيف وجولى رحلة العودة بالسيارة. وظهرت فى المساء نجوم قليلة، ولم يكن للقمر أى أثر رغم أن جولى كانت تقول انه لابد أن يكون هناك فى مكان ما.

توقف ستيف فى سيارته عند المنعطف المواجه لبيت آل لوبلان، ولم ينطق أيهما بكلمة بعدما أوقف محرك السيارة.

ثم قال مؤكدا:

«سوف.. سوف أتصل بك غدا.»

وفتحت جولى باب السيارة. واشتعل الضوء الداخلى آليا. وانسلت من السيارة واتجهت الى البيت بسرعة.

كان البيت هادئا فيما عدا صوت موسيقى مكتومة آتية من جهاز تسجيل من حجرة المعيشة، فعرفت أن شخصا آخر كان هناك. ولم تكن جولى تود أن تقابل أيا من افراد الأسرة حتى لا تضطر الى اعادة سرد أحداث اليوم. كانت تريد أن تحتفظ لنفسها بنكهة تلك اللحظات فترة أطول. ولذلك تسللت تصعد الدرج الى حجرتها. وتركت باب الحجرة مفتوحا، واجتازت لتشعل المصباح الأرضى. وعندما قفلت راجعة لتغلق باب الحجرة رأت كلودين تقف عند المدخل.

كان شعرها الأسود يتهدل على كتفيها، ونظرت الى جولى تقول:

«لقد رجعت اذن! هل استمتعت بنزهة قصيرة مع ستيف؟»

واجابت جولى فى هدوء وهى تحاول ألا تتيح الفرصة امام كلودين للاستمرار فى التحدى:

«لقد أمضينا معا وقتا سعيدا للغاية.»

«لابد أنك جعلته يخضع لمشيئتك فى التجول فى تلك المناطق

السياحية.»

«الحقيقة أن ستيف اقترح أن أزور جزيرة آفرى فذهبنا الى هناك بناء على اقتراحه.»

«سبق له أن زار آفرى عدة مرات عدة. انها لمعجزة أنه لم يضجر من هذه الزيارة بشكل يفقده صوابه.»

وأجابت جولى وابتسامة خفيفة على وجهها أشعلت نار الغضب فى عينى كلودين القاتمتين:

«لا أعتقد أنه ضجر على الاطلاق.»

واستدارت جولى تلتقط فرشاة شعرها وهى تأمل أن تفهم كلودين من خلال ذلك أنها لا تريد الاستمرار فى هذا الحوار. ولكن كلودين تشدقت من خلفها قائلة:

«أرجو ألا تحسبى أنه يهتم بك بالفعل. فأنت فتاة تنقصها الخبرة وربما تجلبين لنفسك الضرر.»

«أعتقد أننى فى سن يتيح لى أن أعرف كيف أحافظ على نفسى.»

«رجولته يمكن أن تصبح مسيطرة. ولقد وقعت فى حبائله من قبل نساء أكثر نضجا منك.»

ونظرت جولى فى سذاجة الى كلودين، وقالت:

«وهل كنت أنت واحدة منهن؟»

«اننى أكثر من غيرى خبرة واحتمالا، وأعتقد أنك تضعين نفسك فى موقف لم تنضجى له بعد.»

«هذه مشكلتى أنا. أليس كذلك؟»

وأجابت كلودين فى حدة:

«بالطبع. كنت أحاول أن أقدم اليك نصيحة ودية صغيرة. ولكن اذا كنت تفكرين فى قضاء وقت سعيد من اجازتك بدون أن تتورطى. فاستمتعى بوقتك ولن تجدى أفضل من ستيف ليحقق لك ذلك. ولكن تأكدى من أنه لن يقبل الارتباط أبعد من ذلك.»

وعلقت جولى:

«أعتقد أن ذلك سبب لك شيئا من الكدر.»

وبدا الغضب المكبوت على وجه كلودين وقالت:

«ستيف رجل ككل الرجال، ويجد فى رفقتى ما يشبع تطلعاته.»

وعلقت جولى للمرة الثانية:

«تستطيع أى امرأة أن تفعل ذلك.»

كان الحديث بينهما قد تطور بشكل سريع انكشفت معه فى وضوح كراهية كلودين لجولى. وقالت فى تحد:

«لنتكلم بصراحة. قد أجد فى سذاجتك شيئا من التسلية الآن. ولكن الأمر لن يستمر هكذا فاما أن ينجح فى غوايتك وعندئذ تفيقين على الحقيقة، أو أن يشعر بالملل منك وعندئذ يهجرك تماما. وأنت بالنسبة اليه مجرد ذكرى عارضة، وسوف تدركين ذلك بنفسك.»

واستلت جولى مخالبها لترد قائلة:

«قد تكونين على صواب ولكن ألا يمكن أن يكون قد بدأ يحس فعلا بالضجر من البضاعة المستعملة وقد يكون بحاجة الآن الى أن يجرب شيئا جديدا تماما يستطيع أن يشكله بما يتمشى مع تطلعاته؟»

وارتفعت يد كلودين مهددة وظنت جولى للحظة أنها أرادت أن تصفعها، ولكن كلودين تراجعت واتجهت نحو الباب، من دون ان تغادر الحجرة. واستدارت نحو جولى لتقول فى احتقار:

«انك ترتكبين غلطة كبيرة.»

وغادرت الحجرة.وأخذت جولى تمعن التفكير، وحدثت نفسها: لقد كسبت الجولة الأولى.. ولكنها الحرب الآن.

استيقظ جولى باكرا فى الصباح التالى، وارتدت ثوبا أبيض اللون زاهيا تزينه بعض الأزهار البرتقالية والصفراء، وحذاء خفيفا برزت منه أصابع قدميها. واستخدمت بعض الماكياج

وراحت تردد نغمة مرحة وهى تهبط الدرج الى المطبخ. كان كل ما قاله ستيف أنه يتصل بها اليوم وان لم يذكر شيئا عن اعتزامه مرافقتها الى مكان معين، ولم يذكر كذلك شيئا عن الوقت الذى يتصل فيه: هل هو الصباح؟ أم المساء؟ وكانت على استعداد للاستجابة لأى شئ.

وجلست السيدة لوبلان وميشيل وغى الى مائدة الطعام الصغيرة، فيما كان اميل لوبلان قد خرج. أما كلودين فلم تكن قد استيقظت بعد ولم يؤثر ذلك فى جولى اطلاقا. وبدت السيدة لوبلان كعادتها مبتهجة. وكانت سعادة جولى الغامرة تتناسب تماما مع التحية المشرقة االتى قايلتها بها. وأومأ غى اليها ايماءة مقتضبة بدا فيها شئ من الاكتئاب والاتهام. لكنها تجاهلته وراحت تصب لنفسها فنجانا من القهوة، وجلست على الكرسى الشاغر عند نهاية المائدة.

وعلقت ميشيل، وقد بدت فى عينيها نظرة سليطة اتجهت الى جولى ثم الى أخيها، وهى تقول:

«لقد تسللت الى فراشك الليلة الماضية دون أن تقصى علينا شيئا من مغامراتك بالأمس.»

وعلقت السيدة لوبلان:

«صحيح يا جولى. حديثنا أين أخذك إتيان؟»

وظل غى يحدق فى فنجانه بأكتئاب، وبدأت جولى تقول:

«لقد ذهبنا الى جزيرة آفرى.»

وراحت تنقل اليهم انطباعها عما رأته وهى تتجنب أن تركز شيئا من الحديث حول الذى كان يرافقها.

وابتسمت السيدة لوبلان وقالت:

«اننى سعيدة كون إتيان اصطحبك الى هناك.»

وقطع غى صمته الذى فرضه على نفسه، وقال:

«ولكن كلودين ليست كذلك.»

ونظرت السيدة لوبلان الى ابنها فى استغراب وقالت:

«لماذا تتضايق كلودين من ذلك؟»

وهز غى رأسه فى يأس قائلا:

«لا يعقل أن لا تعرفى السبب!»

وردت السيدة لوبلان فى تأكيد:

«اذا كنت تحاول أن تقول ان هناك شيئا جادا بين إتيان وكلودين فانت مخطئ. انهما يعرفان بعضهما البعض منذ أمد بعيد. أربع سنوات خمس سنوات؟ ولقد كان هذا الوقت كافيا لاكتشاف اذا كان ما بينهما يمكن أن يوخذ بجدية أم لا. ألا ترى أن ما مضى من الوقت بين إتيان وكلودين كاف لأن يعبر هو عن

اعتزامه الاقتران بها؟ أعتقد أن ما بينهما مجرد صداقة لا أكثر.»

وابتسم غى ونظر الى أمه فى شئ من الأسف قائلا:

«انك تعتنقين أفكارا محافظة للغاية.»

وأومأت قائلة:

«ربما ولكن عندما يضع الرجل خاتم الزواج حول أصبع المرأة فذلك يدل على أنه جاد. أما قبل ذلك فهو شئ من العبث. أعتقد أن ما يضايقك هو كون جولى هى التى كانت مع إتيان. وكنت تود أن تكون أنت من أمضى اليوم مع جولى.»

وعلق غى قائلا:

«ربما تكونين على صواب فى ذلك.»

كانت السيدة لوبلان على استعدا لمتابعة الحديث فى هذا الموضوع. ولحسن الحظ دق جرس الهاتف فى الصالة، فأسرع نبض قلب جولى توقعا لما قد تأتى به المكالمة.

ونهض غى عن المائدة قبل أن تجد أى من شقيقتيه الفرصة للأجابة. وقال:

«سأرد أنا على المكالمة.»

ونظرت ميشيل الى ساعة الحائط، وتنهدت قائلة:

«أرجو أن يكون المتحدث ناظر المدرسة فيبلغنى أن ماسورة

المياه قد انكسرت وأن المدرسة غارقة فى المياه. اننى لا أريد أن أرى هؤلاء الأطفال اليوم.»

قالت ذلك وهى تجمع أوراقها استعدادا للخروج، وواصلت:

«أعتقد أن المعلمين يتطلعون الى نهاية الأسبوع بشوق أكثر مما يتطلع اليها التلاميذ.»

وجاء صوت غى معلنا:

«جولى، المخابرة لك.»

وتمتمت معتذرة وهى تغادر المائدة. وأمسكت السماعة قائلة:

«-آلو.»

وكانت تعرف أن المتحدث لن يكون سوى ستيف.»

وأجاب ستيف:

«صباح الخير. هل نمت جيدا الليلة الماضية:

وضحكت فى عصبية وقالت:

«لم أدر بنفسى اطلاقا.»

هذا حسن. أما أنا فلم تغمض لى عين.»

«آسفة لذلك.»

«حقا؟! ولكن هذا لا يساعد كثيرا فى العلاج.»

وأجابت جولى:

«أعرف ذلك.»

وتابع ستيف:

«لقد اتصلت بك لأخبرك أننى مشغول اليوم، فقد تعطل أحد الجرارات الخاصة بالمزرعة أمس، ويجب أن أذهب الى لافاييت لأشترى بعض قطع الغيار. وسوف أمضى جزءا كبيرا من النهار، وربما الليل، لكى أكمل اصلاحه.»

وعلقت جولى وهى تحاول أن تخفى ما أحست به من احباط:

«على كل حال، لم تكن لدينا خطة محددة. ولم يكن بامكانك أن تتنبأ أمس بما كان سيحدث للجرار اليوم.»

وجاء رد ستيف معبرا فى صدق عن أسفه:

«إننى أيضا أحس بالأسف يا جولى. فما خطتك اليوم أثناء انشغالى باصلاح الجرار؟»

وأجابت فى جرأة:

«سأجلس لأفكر فيك.»

وهمهم فى قسوة وسخرية:

«ان أى تعليق آخر مثل هذا قد يجعلنى أغير رأيى واهمل الجرار..»

قالت وهى تبتسم:

«هل تعد بذلك؟»

قالتها فى جرأة، وواصلت:

«اننى اتراجع عما قلت. وعلى كل حال فأنا أبنة مزارع وأفهم جيدا أهمية اصلاح الجرار.»

قال بلهجة مرحة:

«شكرا يا حبيبتى.. واذا ربما الى الغد.»

أجابته:

«نعم. الى الغد.»

وبعدما أغلق الخط أعادت جولى السماعة الى مكانها واستقرت يدها عليها لفترة قصيرة كما لو كانت بطريقة لا شعورية تطيل حديثها مع ستيف. وسمعت صوت خطوات تقترب نحوها، واصطنعت ابتسامة على وجهها. والتفتت لتجد غى يحدق فيها وعيناه تعكسان شيئا من الشك والضيق. وقال:

«فى وسعنا أن نلعب بضعة اشواط من التنس عصر اليوم اذا كان لديك وقت يسمح بذلك.»

«اننى على استعداد.»

قالتها فى هدوء وهى تأمل أن تكفر عن ذنب كانت تحس به ازاءه.

١٠ ـ مغامرة طائشة

عندما طلب ستيف جولى فى اليوم التالى، كانت قد غادرت المنزل منذ وقت قصير لقضاء بعض الحاجيات الشخصية فى المدينة، فترك لها رسالة لدى السيدة لوبلان بأنه سيعاود الاتصال تلك الليلة. وأسفت جولى كثيرا لعدم وجودها وتلقى الرسالة بنفسها. ولكن كان عزاؤها أن الأمل قائما وان كلفها الانتظار يوما كاملا.

كانت لا تزال بحاجة الى أن تتخذ قرارا فيما تفعله طوال اليوم، ولم يكن من دأبها أن تقبل بسهولة الجلوس بلا عمل. وبدا لها أن أسلم طريقة لقضاء الوقت حتى يحين المساء أن تشغل نفسها بالسياحة رغم أن الفكرة لم تكن مثيرة. وكان هناك مكان قريب لم تزره بعد وهو حدائق«رب فان ونكل» فى غرب أيبيريا.

كانت الحدائق الغناء على الطرز الانجليزى تبدو باردة اذا قورنت بحدائق الغابة فى جزيرة آفرى. ولكنها كانت هنا من دون رفيقها. وتأكدت أن لذلك دخلا كبيرا فى نقص حماستها. ونظرا الى شدة الحرارة والرطوبة قررت أن تتناول شرابا باردا فى رحلة العودة وهى تخترق مدينة نيوايبيرياز وتبينت أنها بمحض الصدفة أو بايحاء لا شعورى جعلت سيارتها الفولكس واغن تنتظر قريبا من المتجر الذى طلب منه ستيف شراء القماش اللازم لتنجيد الأريكة والكراسى.

ودخلت جولى المتجر استجابة لدافع ساذج. وتعرف عليها فورا البائع الذى قام بخدمتها فى المرة السابقة، وأوضح لها أن الطرود وصلت منذ قليل فى ذلك الصباح، وعبر عن سعادته لمجيئها فى الوقت الذى كان يعتزم الاتصال بالسيد كاميرون. وعرض عليها أن تأخذ القماش معها فقد دفع ثمنه من قبل. وترددت بعض الشئ خشية ألا يرتاح ستيف الى ذلك التصرف.

واحتاج الأمر الى بعض الجهد لادخال القماش بحجمه الكبير

داخل السيارة. وتبين لجولى بعد ذلك وهى تحتسى عصير الليمون فى أحد المطاعم، أنها ضيعت وقتا كبيرا فى متجر القماش. وعادت الى السيارة وهى ترجو ألا تكون سببا فى تأخير موعد العشاء لأسرة لوبلان كما حدث فى الليلة السابقة عندما تأخرت هى وغى.

ووصلت جولى بالفعل فى وقت يسبق موعد الطعام بكثير. وعرفت أن ستيف طلبها قبل أن تصل، وأحست بشئ من الاحباط والغضب من نفسها لأنها تغيبت ذلك الوقت الطويل فى الخارج ولم تجد لديها شهية للطعام، وبدأت تتساءل: هل يخطر لستيف مثلا أنها كانت تقصد مضايقته؟ لم يذكر ستيف فى المرة الأخيرة أنه سيعاود الاتصال بها. ماذا يحدث لو أنه لم يتصل؟ وأخذت تعاون السيدة لوبلان فى حمل الطعام الى المائدة، وهى تندب سلوكها الذى جعل المكالمة تفوتها. وفكرت فى الاتصال به ولكن الهاتف موصل ردئ أحيانا. وقررت أن تقود سيارتها الى كاميرون هول تلك الليلة ذاتها مهما بدا ذلك تصرفاً جريئا، وخاصة أنها تستطيع أن تشفع اعتذارها الى تسليم قماش التنجيد.

ولم تخبر جوليالسيدة وبلان بشئ سوى أنه خارجة وسوف تعود فى وقت متقدم من المساء. وكان الغسق قد استسلم الى حلول الليل عندما جلست وراء عجلة قيادة سيارتها، ولمحت ميشيل عائدة بسيارتها من المدرسة حيث أحضرت بعض الأوراق التى نسيتها هناك. واضطرت جولى الى التريث حتى تقف سيارة

ميشيل فى مكان الانتظار، ويخلو لها طريق الخروج.

وصاحت ميشيل تسألها:

«هل تعتزمين الخروج؟»

وأجابت دون أن تعطى مزيدا من الايضاح:

«نعم.»

ولوحت ميشيل قائلة:

«احترسى فالضباب كثيف الليلة.»

تركت جولى مدينة سانت مارتنفيل واتخذت طريقها خلال الريف، وتبينت أنها لم تعر تعليق ميشيل حول الضباب ما يستحقه من اهتمام. فقد كان الضباب يلتف حولها بشكل كثيف لدرجة أنها اضطرت الى خفض السرعة ادنى حد ممكن.

وعجزت الأضواء العالية فى السيارة حتى عن أن تمكنها من رؤية المستنقع الممتد على طول الطريق بشكل واضح. بل لم تستطع تلك الأضواء أن تكشف الرؤية لأكثر من أقدام قليلة أمامها. وتكاثفت الرطوبة على الحاجب الزجاجى لتزيد من صعوبة الرؤية. واعتمدت على غريزتها فى التعرف على تقاطع الطريق والطريق المؤدى بها الى الحارة الترابية المؤدية بدورها الى المستعمرة.

كان الوقت يمر ثقيلا شأنه شان الفولكس واغن ذاتها. وعلى

مدى الطريق تصورت جولى أنها ضلت الطريق. وبدأ الألم فى أصابعها من طول ما كانت تضغط بها على عجلة القيادة. وشعرت بضربات الصداع فى مؤخرة رقبتها وبالآم فى عينيها من كثرة التحدق فى الحاجب الرمادى الذى كان يحيط بها.

وأحست بصيحة يأس تحتبس فى حلقها وظنت أنها ضلت الطريق بالفعل عندما لمعت لافتة بيضاء صغيرة قرب حافة الطريق كان من الصعب قراءة ما كتب عليها بسبب الضباب المتكاثف حولها. وأوقفت السيارة تماما.

وتراجعت منها تاركة محركها يدور. ونظرت الى اللافتة عن كثب ووجدت العبارة: طريق خاص.. ممنوع التجاوز.

كانت العبارة تعلن عدم الترحيب ومع ذلك أحست ازاءها بالاطمئنان. لقد نجحت بمعجزة فى الوصول. ورغم ذلك كان أمامها ربع ميل الى المستعمرة. وغدت المشكلة أنها كلما اقتربت من المستعمرة ومن الرافد على الجانب المقابل زادت كثافة الضباب. ولم يكن هناك أمل فى أن ترى المدخل ببوابته الحديدية. واضطرت الى أن تخمن المسافة وأن تستكشف المدخل سيرا على الأقدام معتمدة على كشاف ضوئى كان معها. ولم تخط أربع خطوات من السيارة حتى تبينت شكله الغريب المستدير وساعدها لونه الأحمر فى الوصول اليه. وخطت الى الأمام خطوتين وأخذت أنفاسها بعمق، وقد أطبق الضباب كليا

على السيارة واسدل فوقها ستارا يحجبها عن الرؤية. وأخذت تشق طريقها فى بطء شديد على طول المستنقع تبحث عن القنطرة المؤدية الى البوابات وهى تحاول أن تخلص نفسها من الأفكار المقلقة خشية أن تضل الطريق فى تلك السحابة السوداء الرمادية.

وكادت تضل الطريق الى البوابات فى ذلك الظلام الكثيف الضباب، ووجدتها مغلقة. ولم يكن شعاع الكشاف الضوئى يذهب الى أبعد من البوابات الحديدة بمسافة كبيرة بسبب الضباب. ووضعت يدها على القضبان الحديدية الباردة الرطبة فى شئ من التردد، وبدأت تهزها لتستطلع مدى احكامها. وبدا الجرس المتدلى من العمود وكأنه أخرس بلا رنين. ومع ذلك وقفت تنتظر قبل أن تتسلق القضبان الحديدية إلى الداخل.

وبدأ ضوء خافت يتراءى لها من الغارسونيرة وزاد توتر أعصابها عندما كانت الرطوبة الساخنة قد بدأت تخترق ثيابها، وبدأت تحس بالالم فى عظامها وشعرت برجفة، وأخذت تدلك ذراعيها بقوة وهى تنظر فى قلق وخوف حولها. لم يكن هناك أثر لستيف. وبدت فكرة العودة الى السيارة والرجوع بها الى بيت آل بوبلان فى ذلك الضباب شيئا مفزعا.

وجاء صوت ستيف من الطرف البعيد للردهة الضيقة شئ من التأنيب يقول:

«ماذا تفعلين هنا؟»

وجاء ردها مضطربا:

«لقد جئت لأراك، وكدت أقنع بأنك لست هنا.»

واقترب منها والغضب يتطاير من عينيه. لقد توقعت منه أن يعبر عن دهشته أو عن فرحه بها، وكان آخر ما توقعته أن تراه غاضبا. وقالت:

«لقد وصل قماش تنجيد الأريكة والكراسى اليوم. كنت فى نيوأيبريا وتوقفت هناك. ولقد تركت القماش فى السيارة. لم أكن مرتبطة بشئ الليلة وفكرت أن أحضر القماش.»

وسألها:

«كيف وصلت الى هنا؟»

وأجابت فى وهن وهى تستسلم لنظرته المحدقة فى استغراب:

«لقد حضرت بسيارتى، لم أكن أتوقع أن يكون الضباب بهذا السوء، حتى خرجت من المدينة.»

وأخذت ترتعد مرة ثانية، ولم يكن ذلك بسبب البرد فقط، وواصلت تقول:

«كنت قد وصلت الى هنا بالفعل... والا لكنت رجعت. أكاد أحس أن الرطوبة سرت اليك كذلك.»

«ولماذا لم تدخلى الى البيت حيث الدفء؟»

«لم يسمح لى الكلب بتخطى المدخل.»

قالت ذلك وهى تحس بشئ من الضيق لسلوكه الغريب تجاهه.

ونظر ستيف اليها وأمرها فى حدة، وهو يشير الى المدفأة:

«أجلسى الى جانب النار حتى أحضر سيارتى البيك أب فلها مصابيح خاصة للضباب. أما عن سيارتك فسأحضرها لك صباح الغد.»

«أشكرك على سرورك الزائد لرؤيتى.»

قالتها فى سخرية وهو يتجه الى الباب، وكان أسفل ذقنها يرتعد بينما كانت الدموع تلتهب فى مقلتيها. وحدق فيها قائلا:

«ماذا تعنين؟»

«انها لوعتى. أقود السيارة طوال الطريق حتى أصل الى هنا ولا أجد منك حتى كلمة ترحيب أو مجرد استفسار عن حالى قبل أن تحزمنى كبضاعة لتحملنى الى البيت.»

«اذا .. كيف حالك؟ كيف حالك مرة ثانية أيتها الغبية الصغيرة التى لا تحسن التفكير! أيتها المخبولة!»

كانت تلاحظه بجسدها المرتجف وأنفاسه المتلاحقة ليسيطر

على غضبه. وأخذ ينظر اليها فى صمت ويداه على مؤخرة ظهره.

وهمست قائلة وهى تعجز عن مواجهة عينيه اللتين تشيران اليها بالاتهام:

«أكاد لا أفهم!..»

وأجاب فى كآبة:

«ان هذا شئ واضح. كم سيارة مررت بها فى طريقك الى هنا؟»

وأحست جولى بأنها تتضاءل أمامه، وقالت:

«ولا واحدة.»

«ذلك لأن أى شخص لديه ذرة من العقل لا يمكن أن يخرج فى مثل هذا الضباب.»

«ولكن ميشيل كانت عائدة من الخارج عندما اتخذت وجهتى الى هنا، ولم يكن يبدو عليها القلق.»

«لأنك لم تخبريها عن وجهتك. هل قلت لها أنك آتية الى هنا؟ لو أنك فعلت ذلك لحذرتك من القدوم.»

«ولكنها لم تحذرنى. وها أنا هنا، ولا ينبغى أن تعاملنى بهذه الوحشية.»

«كان من الممكن أن تنقلب سيارتك فى المستنقع أو تصطدم

بأحد أعمدة الهاتف وتتهشم. ماذا تنتظرين منى ازاء ذلك؟»

وهمست قائلة:

«لم أكن أظن أنك تهتم بى الى هذا الحد.»

قال وهو يتمتم:

«أهتم؟!»

واعترضت فى وهن قائلة:

«انك تؤذينى.»

«انك تستحقين ذلك.»

وحدقت جولى فى وجهه وقالت:

«اذا كان هذا شعورك فلماذا اذن تريدنى أن أعود؟»

«هل تفضلين البقاء هنا حتى ينقشع الضباب؟ سوف تظل الحال كذلك حتى صباح الغد على الأقل.»

«كلا.. لا أستطيع. فقد أحسست بأننى لم أرك منذ مدة طويلة. وفاتتنى مكالمتك هذا الصباح، ثم مرة ثانية فى فترة ما بعد الظهيرة. كنت أريد أن أراك فقط.»

«وكنت أنا أيضا أريد أن أرك، ولكن ليس هنا.»

«ولكن ما الفرق؟»

«اذا كنت تريدين أن أشرح لك فهذا يعنى أنك أكثر سذاجة بكثير مما كنت أظن.»

«اننى لا أستطيع أن أتحمل مشاعرى تجاهك!»

«انك تقولين كلاما لا معنى له يا جولى.»

«اننى أتحدث الى انسان متحجر. هذا هو كل شئ.»

وقبل أن تجد الفرصة للاعتذار وجدته يقول:

«ليتنى متحجرا.»

اذن أنت متقلب؟ وربما تعتزم أن تنسانى؟»

«لا أقول اننى كذلك تماما لأنك شخصية متميزة طبيعية وسخية.»

«أظن أن من واجبى أن أشكرك على هذا المديح.»

«لم أقصد أبدا أن أؤذيك يا جولى. اننى سآخذك الى بيتك الآن.»

«لا تأسف على يا ستيف. لقد أخبرتنى الخالة بريجيت ذات مرة ان الحب الحقيقى شئ نادر، وقليلون هم الذين يعثرون عليه لأن معظم الناس أنانيون لا يستطيعون أن يعطوا من أنفسهم الا بطريقة مصطنعة.»

وسألها فى برود:

«هل تعتقدين أننى واحد من هؤلاء؟»

وهزت رأسها فى حيرة وقالت:

«أكاد لا أفهمك، تتصرف فى وقت وكأنك تهتم بى، وفى لحظة أخرى تبدو وكأنك بلا احساس ولا عاطفة تجاهى.»

وانضمت شفتاه فى خط مقطب وهو يحدق فيها دون أن يجيب. ولمحت عيناه تضيقان ولاحظت مرة أخرى كم كانت رموشه طويلة وكثيفة. وظل لحظة يحدق بطريقة ناعسة من خلال نظرات عميقة وقال:

«ليس هذا هو الوقت ولا المكان للحوار الذى تريدين أن تجريه.»

وسار أمامها متجها نحو السلم. وعندما وصل الى منتصف المسافة نظر اليها وقال:

«هيا، سأوصلك الى البيت.»

وترددت جولى بعض الوقت اذ خطرت لها فكرة أخرى وقالت فى صوت مضطرب:

«ستيف.. هل تستغلنى لتنسى.. لتنسى كلودين؟»

وقطب قائلا:

«ما الذى وضع هذه الفكرة فى رأسك؟»

«لقد سمعت..»

ثم توقفت وهى تعرف أن أى ذكر لأسم غى سوف يجعله يعلق بطريقة ساخرة، وواصلت قائلة:

«سمعت أن الرجال يبحثون أحيانا عن نساء أخريات لينسوا امرأة معينة.»

وألحت فى السؤال:

«هل صحيح أنك.. أن الرجال يفعلون ذلك؟»

«نعم صحيح. فانه لشئ مجد ولكنه لا ينطبق على هذه الحالة، على الرغم من أن الاحتمال قائم.»

«هل تعنى أنك تريد أن تنسانى؟»

وسحبت جولى أنفاسها فيما شعاع من الأمل يضئ عينيها وتابع يقول:

«وخاصة عندما تختبرين صبرى كما تفعلين الآن. لآخر مرة.. سأوصلك الى المنزل.. هيا.. اهبطى!»

وشعر ستيف أنه ازاء حالة من حالات الاكتئاب الغريبة.

كانت جولى تتذكر فى سرعة ما صاحب تلك اللحظات الانفعالية التى وقعت بينهما قبيل ذلك بوقت قصير لدرجة أنها كانت تصر على مزيد من الحديث حولها. بينما أوضح لها أنه لا

يريد أن يستعيده. وكانت مشاعرها تجاهه مختلفة لدرجة أنها لم تكن واثقة من حقيقة تلك المشاعر.

لم تكن بالفعل تعرف حقيقتها، بل زاد شكها. كان شيئا معقدا لا يمكن لخبرتها المحددة أن تستطلع كنهه، وأدركت أنه كان يعرف ذلك أيضا.

وتمكنت مصابيح الاضاءة فى السيارة البيك آب أن تكشف الرؤية بطريقة أفضل، وكانت السرعة التى تسير بها أبطأ من المعتاد ولكنها كانت أسرع مما كانت تقود جولى سيارتها فى رحلة القدوم. كان ستيف يواليها كل اهتمامه ولكنها بدت وهى تجلس على الكرسى المجاور له جسما بلا حراك.

وعندما توقفت السيارة أمام بيت لوبلان ترك ستيف المحرك دائرا ليوحى لها بأنه لا مكان للوداع الطويل. وقال لها:

«سأحضر سيارتك فى الصباح وقد يكون ذلك قبل أن تستيقظى من النوم.»

كانت كلماته الخشنة تدل على أنه يستعجل الانصراف. ومدت جولى يدها الى مقبض الباب، ووجدت يده تمتد الى ذراعها لتسبقها وهو يقول:

«يجب على أن أذهب الى نيوأورليانز غدا لقضاء عمل، وسأبقى هناك أياما.»

وسألته وهى تعرف أن نغمة صوتها كانت تعكس المشاركة:

«ماذا تريد أن تقول لى؟»

ولكن برود ستيف كان قد ساءها وأرادت أن ترد عليه بالطريقة ذاتها. واكتفى ستيف بأن اصطنع تنهيدة غاضبة ومد يده ليفتح الباب وهو يقول:

«لا أدرى.. طاب مساؤك يا جولى.»

١١-القلب المحطم

«أين كنت؟»

كانت جولى قد أسرعت الى داخل المنزل وصعدت الى قرب منتصف الدرج عندما فاجأها سؤال كلودين وجعلها تتوقف فجأة. كان كل ما تريده أن تلوذ بحجرتها لتذرف الدموع التى تحرق مقلتيها.

وأجابت:

«فى مهمة.. اذا كان أمرا يعنيك!»

وسخرت كلودين قائلة:

«لابد أنها كانت مهمة مناسبة مكنتك من جعل ستيف يعيدك الى هنا.»

كانت جولى على وشك أن تكمل صعود الدرج، ولكن الفتاة ذات الشعر الأسود فى لون الغراب، واصلت وعيناها تلمعان مثل الفحم المتقد:

«من المؤسف أنك لم توجهى اليه الدعوة للدخول. كان بودى أن أتحدث اليه فى أمر ما، ولكن يبدو أن ذلك سوف يتأجل الى الغد.»

«سيكون عليك النتظار مدة أطول.»

«أجابت جولى بطريقة تشبه الطريقة التى تحدثت بها كلودين، رغم أنها لم تكن قادرة على مواجهة عينى المرأة الأكبر سنا، وواصلت:

«ان ستيف ذاهب غدا الى نيوأورليانز وسيمكث هناك حوالى يومين.»

وانطلقت جولى تصعد الدرج، بينما واصلت كلودين تقول:

«يا لحسن حظى!»

كانت رقة العبارة التى أطلقتها أكثر اغاظة من ألفاظ السخرية التى تحدثت بها فى ما سبق.

كانت الفولكس واغن الحمراء تقف فى مكانها السابق خلف المنزل فى الصباح التالى عندما نهضت جولى من الفراش وكانت قد نامت نوما متقطعا. وبدا ذلك فى النظرة المقطبة على وجهها وفى الدوائر السوداء تحت عينيها. فكم حاولت أن تجعل نفسها تدرك كيف تصرفت بطريقة غير منطقية، ولكن لم يكن فى قلبها مكان للمنطق.كان هناك ستيف فقط وحاولت أن تلوم نفسها لأنها عرفته مدة لا تقل عن أسبوعين ولكن كم من عاشقين وقعا فى الحب ساعات قليلة، ولم يكن حبها أقل قوة أو أقل دواما.

وطال اليوم فى غيبة ستيف الذى كان فى نيوأورليانز. وأحست بفراغ يكاد لا يصدق. وحتى لو كان هنا فلم يكن ذلك ليغير شيئا من الاحباط الذى كانت تحس به. وتذكرت جولى المأساة التى كانت تعيشها قبل أن تحضر الى لويزيانا. وبدت تلك المشكلة صغيرة الآن أمام حبها الأزلى لستيف.

كانت جولى تعرف أنها لا يمكن أن تبقى حبيسة المنزل طول النهار، وقد أبدت السيدة لوبلان اهتماما بالكآبة البادية على وجهها، وهى تتناول طعام الافطار. ولم تكن تشعر برغبة جادة فى زيارة أى بقعة من المناطق السياحية، حيث تركز اهتمامها فى شئ واحد أرادت أن تنجزه وهو أن تلتقط مجموعة من الصور لكاميرون هول حتى اذا عادت الى داكوتا الجنوبية استطاعت أن تعرض على الأسرة صورا تذكارية عن بيت أسلافهم.

ولكن أن تعود الى مسقط رأسها ولا ترى ستيف ثانية جعلها تهوى الى أعماق من الأسى مرة أخرى. وأخذت تتجول فى أراضى المستعمرة وكلب الرعى الألمانى اليقظ دائما يسير فى أعقابها. ولكن ذلك لم ينجح فى رفع معنوياتها. كان ذلك رمزا للنهاية وهى تلتقط الصور كما لو كانت سترحل فى اليوم التالى بينما كان لا يزال أمامها أسبوع من اجازتها لم يبدأ بعد. وكانت تعرف كذلك أنها لن تستطيع أن تنظر الى الصور دون أن تفكر فى مالك المستعمرة الحالى، ودون أن تتخيل منظره ووراءه زهور الأزاليا الحمراء فى لون اللهيب والاعمدة الضخمة المستديرة.

وعادت جولى الى بيت آل بوبلان فى وقت متقدم بعد ظهيرة ذلك اليوم. وكان وصولها فى الوقت الذى رجعت فيه ميشيل وغى. ورغم أنها كانت تحس بالحاجة الى الاسترخاء فى حجرتها، فقد أحست أنه لا يليق ترك ميشيل وغى وحدهما، خاصة أن ميشيل وجهت اليها دعوة ودية فى أحتساء عصير مثلج. ولسوء الحظ اظطرت ميشيل الى الانسحاب لتجيب على مكالمة هاتفية، وبقيت جولى وغى وحدهما.. رغم حرصها على تجنب ذلك.

ونظر اليها غى فى ابتسامة قصد بها اللهو من جهة والتمويه عليها من جهة أخرى،قال:

«لا تبتئسى يا جولى!»

وسألته فى عنف:

«ماذا تعنى؟»

«أرى وجهك يكتسى باكتئاب مستمر وكأنك لم تسمعى من قبل تحذيرا بأن هذا قد يحدث!»

«لا أستطيع أن أفهم ما تعنيه. ما الذى يمكن أن يحدث؟»

ونهضت على قدميها فى تأهب للدفاع عن النفس، واتجهت لتطل من النافذة ولم تكن ترى العصفور الأحمر المغرد يرفرف بجناحيه حول شجرة الماجنوليا.

«كلودين وستيف بالطبع!»

وقالت بلا شعور:

«ستيف فى نيوأورليانز.. أليس كذلك؟»

وهز رأسه فى حيرة وقال:

«انك حقا لا تعرفين. هل تعرفين؟»

وأحست بهاجس غريب يتسلل الى صدرها، وسألت:

«أعرف ماذا؟»

«لقد ذهبت كلودين مع ستيف الى نيوأورليانز.»

«لا!»

وشهقت نفسا وأخذت تهز رأسها فى شك وهى تقول:

«لا. هذا غير صحيح.»

وحاصر حلقها بكاء هستيرى كتمته جولى بيد منقبضة وضعتها على فمها. لقد فهمت الآن الأسباب التى وراء ما قاله ستيف الليلة السابقة. كان يحاول بلباقة أن يخبرها أنه لا يهتم بها، وهو لاشك يقدر مدى أحاسيسها. كان يحاول أن يجعلها تدرك أن مشاعره ليست بالدرجة ذاتها، بل لقد ألمح الى أنه قد يستخدم كلودين لينسى جولى وكأنه كان يهيؤها للخبر الذى ألقى به غى الآن.

كان لاغى قد اقترب خلفها ووضع يديه برقة على كتفيها وهو يقول:

«انك وقعت فى حبه حقا.. أليس كذلك؟»

لم تكن جولى تثق فى قدرتها على الكلام دون أن يتهدج صوتها بالبكاء، واكتفت بأن أومأت بالموافقة وواصل يقول:

«أنت أيتها المجنونة الصغيرة.»

وتابع:

«لقد أخبرتك أن كلودين سوف تنتصر.»

وأجابت جولى بصوت مرتجف بعدما رفعت اليه عينيها المليئتين بالدموع:

«انها لم تنتصر! ألا تفهم؟ ان ستيف لا يهتم بأى منا. حاول أن يقول لى ذلك الليلة الماضية.»

«هل رأيته الليلة الماضية؟»

«نعم رأيته فترة وجيزة.»

لم تكن جولى لتخبر غى وواصلت تقول:

«ماذا أفعل يا غى؟ لا أستطيع أن أواجهه مرة أخرى. لا أستطيع.»

وعلق غى وهو يضغط على أسنانه:

«لم يكن من حقه أن يلهو بك.»

«لم يعد هناك وقت للتفكير فى ذلك الآن. فضلا عن أنها ليست غلطة ستيف. أننى واثقة به.»

وأضافت فى رزانة بعدما زال أثر الصدمة الأولى:

«أعتقد أن الوقت حان لكى أعود.»

«الى داكوتا الجنوبية؟»

«نعم. لقد انتهيت من مشكلة هناك لأقع فى مشكلة أخرى هنا.»

ومسحت الدموع عن وجنتيها ورفعت كتفيها وتابعت تقول:

«لقد كان التغيير هو العلاج انذاك، وأعتقد أنه العلاج الفعال الآن.»

«ولكن مازال أمامك أسبوع آخر وفقا للبرنامج.. ولقد أخبرت

أمى بذلك.»

«أعرف خطتى. ولكن أعتقد من الأفضل أن أعدل هذه الخطة الآن.»

وفى المساء، على مائدة العشاء، أعلنت جولى لأسرة لوبلان عن اعتزامها الرحيل. وانتحلت عذرا لذلك أنها تلقت خطابا من والديها ينبئانها عن مرض احدى قريباتها رغم أن ذلك لم يكن صحيحا، مما جعلها تتخذ قرارها المفاجئ.

ورأت أنها اذا حزمت أمتعتها الليلة وحملتها الى السيارة فى الصباح فسوف يكون بامكانها أن تتخذ طريق العودة قبل رجوع ستيف وكلودين من نيوأورليانز.

ولم تكن جولى قد وضعت فى تقديرها حسابا للاعتراض التى أثارها اميل لوبلان الذى صمم على أنها ينبغى ألا تبدأ الرحلة الطويلة دون أن يتم فحص سيارتها فى أحد الجاراحات المحلية. وحاولت يائسة أن تقنعه بأنها سبق أن فعلت ذلك بعناية قبل رحلة القدوم من داكوتا الجنوبية، وانه لا داعى اطلاقا لتكراره ثانية. ولكنه كان صلبا عنيدا، وصمم على أن جولى التى أصبحت بمثابة عضو فى أسرته خلال اقامتها القصيرة، ينبغى ألا تقوم بتلك الرحلة الطويلة فى ظل احتمال حدوث أى خلل آلى فى سيارتها. وعززت السيدة لوبلان كلامه بأن الغد يوم السبت وأن عطلة الأسبوع ليست الوقت الملائم للقيادة ثانية، ولكنها رفضت الانتظار حتى يوم الاثنين. وقررت أن تبدأ رحلة العودة

يوم الأحد بغض النظر عن ازدحام المرور.

وعندما حان عصر السبت كانت جولى قد أتمت حزم أمتعتها وكانت على استعداد لوضعها فى السيارة. وأوصلها غى بسيارته الى الجاراج المحلى لتأخذ سيارتها التى لم تحتج الا لبعض الاصلاحات البسيطة. وحدقت جولى نحو الشاب الصغير الذى أصبح سندا لها فى صمت وهى تدفع فاتورة اصلاح السيارة وسألته فى صوت هادئ:

«متى تظن أنهما سيعودان؟»

ولم تكن بحاجة الى أن توضح له أن من تقصدهما هما كلودين وستيف، وأجاب:

«أظن أنه لا يفضل القيادة فى الظلام بسبب الضباب، وأعتقد أنهما قد يصلان فى أى وقت من الآن حتى الغروب.»

وعندما عاد غى وجولى الى بيت لوبلان علما أن ستيف حضر منذ قليل لايصال كلودين وقفل راجعا. وأحست بارتياح لأنها لم تضطر الى مقابلته بالصدفة. وشعرت بتعاطف الأقدار معها لأنها كانت فى الجاراج تتسلم سيارتها عندما حضر، وبذلك وفر عليها مزيدا من الارتباك. حتى كلودين لم تكن موجودة. اذ كانت دخلت الى الحمام بعد رحلة فى الجو الرطب الحار من نيوأورليانز. وأحست جولى بالسعادة لأنها لن تضطر الى مواجهة الابتسامة المصطنعة، من الفتاة الأكبر.

كانت جولى وغى فى الخارج يرتبان الامتعة فى الـ
واغن الصغيرة عندما جاءت ميشيل الى الباب الخلفى وأخ
جولى أنها مطلوبة على الهاتف.وسألت جولى وهى تنظ
توجس الى غى:

«من المتكلم؟»

وأجابت ميشيل:

«لم أسأله، ولكننى أظن أنه ستيف.»

وتحدث اليها غى قائلا:

«هل تريدين أن تقولى له أنك مشغولة ولا تستطيعين الحضور للرد على الهاتف؟»

واستخدمت جولى الفرشاة فى تمشيط شعرها
عميق وقالت:

«لا .. لن يحاول أن يثنينى عن رأيى.»

كان صوت كلماتها يدل على شجاعة كبيرة، ولكنها كانت تحس برغبة فى الهروب وهى تمسك سماعة الهاتف الموضوعة على المنضدة فى الصالة. وحدثت نفسها: تشجعى! ثم قالت فى السماعة:

«نعم؟»

وكان فى صوتها شئ من البرود وكأنه صوت يتحدث حول

العمل، ولكن ركبتيها كانتا ترتعدان كأنهما خليط هلامى.

«الو ستيف يتكلم. لم تكن سيارتك هناك عندما أحضرت كلودين.»

وتعجبت جولى من طريقته اذ كيف يجرؤ على أن يتحدث بلا مبالاة. وأجابته بما لا يدل على شئ:

«لقد سمعت أنك رجعت من نيوأورليانز.»

«كانت هناك مبارة كرة قدم، وكان المرور مزدحما... والا عدنا فى وقت مبكر.»

وأحست جولى أنه ليس فى وسعها أن تحتمل ذلك الحديث فقالت:

«اننى سعيدة لأنك اتصلت هاتفيا. ولكن فى نيتى أن أتصل بك فيما بعد لأخبرك أننى عائدة غدا الى داكوتا الجنوبية.»

وأجاب فى صوت خفيض لم تكن تسمعه:

«ماذا؟»

«نعم. ان احد خالاتى فى المستشفى وقد كتب لى أهلى يقترحون عودتى. ولقد حدث ذلك فجأة على ما أعتقد، وهى تحتاج الى هذه العملية.»

وخطر لها أنها تكرر الكلام وكأنها تحاول أن تقنعه بصحة أسباب عودتها. وعلق فى جفاف:

«ولكن ذلك جاء بطريقة مفاجئة للغاية.»

«نعم.. حسنا.. لقد أردت أن أقول وداعا قبل أن أرحل. وهكذا هو السبب الذى كنت سأطلبك من أجله فيما بعد.»

وتحدث فى بطء وبوضوح تام:

«أريد أن أتحدث اليك يا جولى.»

«آسفة، فلدى الكثير من العمل قبل الرحيل: حزم الأمتعة وسواه. بحيث يبدو من المستحيل حقا بالنسبة الى.»

وجاء صوت كلودين يقول:

«هل ستيف على الهاتف؟»

ووضعت جولى يدها على السماعة حتى لا يصل الصوت الى ستيف. كانت كلودين تنظر اليها عبر حاجز الدرج وكانت ترتدى فستانا أخضر من نسيج وبرى يصل الى ركبتيها. وأجابته جولى:

«نعم، انه ستيف.»

وطلبت جولى الى ستيف أن يبقى على الخط لحظة قبل أن تستدير الى كلودين وتسألها:

«هل هناك شئ تريدين أن تحثيه عنه؟»

واجابت كلودين:

«نعم. اننى لا أجد قميصى الأخضر، ولقد بحثت عنه فى كل

مكان ولكن يبدو أننى قد وضعته دون قصد فى حقائب ستيف. هل من الممكن أن تسالينه؟»

وتذكرت جولى فى شئ من الغضب والحقد ذلك الرداء الاخضر المزرق والذى كان يذكرها بريش الطاووس. وهزت كلودين كتفيها عندما لاحظت مشاعر الغضب تبدو على وجه جولى، وأخذت السماعة فى هدوء وقالت:

«ستيف، أنا كلودين.»

ونظرت الى جولى التى تسمرت قدماها على الأرض بابتسامة عذبة قاتلة:

«أنت تذكر قميصى الأخضر المزرق. أنا لا أجده وأحسبه قد أختلط مع حاجياتك؟ هل وجدته؟لا .. ليس من الضرورى.. يمكننى أن أحضر لآخذه غدا. جولى؟»

وارتسمت على وجهها علامة استفهام كبيرة. وعندئذ استدارت جولى وخرجت فى بطء وتعال من الصالة الى الخارج.

لم يحاول غى أن يثير أية استفسارات حول المكالمة، فقد لاحظ تعبيرا مكتوما على وجه جولى التى واصلت العمل فى حزم الأمتعة فى شئ من الانتقام. وأتمت وضع كل شئ داخل السيارة بما فى ذلك الخرائط التى تحدد لها الطريق فى أقل من نصف ساعة. وعندما أغلقت أبواب السيارة كان الغسق الأرجوانى

يتصارع مع ظلمة الليل. وقد أمسى كل شئ على أتم استعداد لرحلة الصباح. ودخل غى الى المنزل قبل ذلك بدقائق قليلة ليعد بعض المرطبات.

ومسحت جولى قطرات العرق عن جبهتها واستدارت متجهة الى الباب الخلفى لتلحق به. ولم تكد تخطو خطوتين حتى انغلق الباب الداخلى ووجدت أمامها شبحا عالى القامة يقف فى طريقها. وتوقفت لحظة وفكرت فى الهرب، لكنها لم تستطع. وارتسم على فمها خط من الكآبة وهى تسير نحو ستيف.

وكان فى وسعها وهى تقترب منه أن ترى آثار التعب على وجهه، ولكنها رفضت أن تجعل الشفقة تضعف من تصميمها أو من ضربات قلبها المكبوت. وبدت عيناه فى الضوء المعتم فى زرقة أكثر قتامة وهما تلاحظان اقترابها منه.

«ما كنت بحاجة الى أن تكلف نفسك عناء الحضور.»

قالتها فى شئ من البرود، وتوقفت على بعد خطوات منه وسخر منها قائلا:

«صحيح؟!»

وقالت وقد جعلها الكبرياء ترفع ذقنها بدرجة أعلى قليلا مما اعتادت:

«لقد تبادلنا كلمات الوداع عبر الهاتف.»

ولم يكن بحاجة الى أن يذكرها:

«ولكن محادثتنا الهاتفية قطعت.»

«غير أننا قد قلنا كل ما هو مهم قبل ذلك. وكانت كلودين قلقة تريد التحدث اليك.»

كانت نظرته تحوم مستفسرة عبر وجهها وهو يقول:

«لقد أعدت اليها رداءها المفقود.»

وواصلت تجيبه فى هدوء:

«كان ذلك احتراما منك لمشاعرها. وأظن أنها ستقدر لك ذلك، فقد كانت قلقة لهذا السبب.»

«ما الذى جعلك تقررين الرحيل بهذه الطريقة المفاجئة؟»

«لقد شرحت لك. أن خالتى مريضة.»

أنا لا أصدق. هل يعقل أن يسبب لك مرض الخالة مثل هذا القلق؟»

وانتهزت جولى الفرصة لتعزز اسباب الرحيل، فقالت:

«ان الخالة بريجيت لها مكانة خاصة، فهى التى زودتنى بالمال للحضور الى هنا. وصلتى بها قوية للغاية ولذلك فمن الطبيعى عندما تمرض ألا أكتفى بهز كتفى كما لو كان الأمر بهذه البساطة.»

وبدأ يستسلم لصدقها رغم أنها كانت ترى آثار الشك على وجهه تصارع لاقناعه بعدم تصديقها. كانت هذه فرصتها للرحيل

لعلها تنقذ كرامته دون أن تخدش.

وأوشكت على الحركة ولكن صوته أوقفها وهو يقوا:

«لدى شعور بأن هناك شيئا لا تريدين أن تصرحى به.»

وبلعت ريقها، وقالت:

«لا أدرى ما هو؟»

وأخذت تجهد عقلها كى تكتشف ما اذا كانت هناك ثغرة فى قصتها، وواصلت تقول:

«أنا.. لم.. لم أشكرك لأنك أتحت لى فرصة التعرف على الملامح المحلية مما جعل لرحلتى مغزى خاصا.»

وارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة متسائلة حبست أنفاسها، وقال:

«شئ أكثر.»

شئ أكثر. العبارة ذاتها التى قالتها فى مناسبة سابقة ربطتها به وواصل يقول:

«لقد حاولت أن أجعل لويزيانا تتجسد فى صورة حية أمامك.»

لم يكن باستطاعتها أن تقول له انه قد جعلها هى تستمتع بالحياة وأنها قد أدركت فى النهاية مدى قوة انفعالاتها كامرأة. واكتفت بأن اصطنعت ابتسامة من أعماق آلامها. وقالت وهى تحاول أن تسير على رجليها المرتعشتين الى أول درجة للسلم فى البيت:

«لقد أتحت لى فرصة سعدت فيها برفقة شاعرية.»

وقال فى شئ من السخرية:

رفقة شاعرية ممتازة كما يحدث على ظهر السفن.»

وأجابت بسرعة وهى تحاول أن تزيح عن كاهلها أثر كلماته الخبيثة:

«نعم. انه غريب حقا كيف أن العودة الى الوطن تجعل الفتاة تعود الى عالم الواقع.»

وبدت فى عينيه نظرة احتقار جعلتها تشعر بالسعادة وهو يقول:

«بلا مشهد يثير الارتباك.. وبلا وعود بالحب الذى لا يبلى.. لعله أفضل كثيرا هكذا.. وأعتقد أنك سعيدة الآن كون عواطفك لم تؤد بك الى ارتكاب غلطة كنت ستعيشين نادمة بسببها.»

كان ستيف يشير الى لقائهما السابق ليلة الضباب. ولكن جولى كانت تقابل كلماته بالصمت الذى لاذت به حتى لا تصرح بحبها له. ولم يكن فى وسعها أن تتحمل اشفاقه عليها، فقالت هامسة والدموع تتجمع وتومض فى عينيها:

«نعم.»

«والآن سوف يكون فى وسعك أن تتحدثى الى صديقاتك عن الرجل الذى قابلته بجانب الرافد.»

وأدارت جولى رأسها بعيدا عن لهب الثقاب وهو يشعل

سيجارته وقالت:

«لقد كانت حقا مطابقة كاملة. كيف أتضح أنك إتيان، ثم كيف اتضح أن إتيان هو ستيف مالك كاميرون هول!»

وواقفت فى صمت متزمت، فقد كانت تعرف تماما أنها لا يمكن أن تحكى لأى شخص القصة الكاملة ولو على سبيل الثرثرة.

وبدأ ستيف يتحدث وكأنه يخاطب نفسه قائلا:

«أعتقد أنك كنت على حق عندما قلت انه لا يوجد شئ آخر يمكن أن يستمر الحديث بيننا حوله. ولقد بدأت أفكر فى أننى ينبغى أن أندم على اليوم الذى دعوت فيه نفسى الى مشاركتك الوجبة التى كنت تأكلينها يوم الرحلة.»

وكانت رغم الظلام تستطيع أن تتبين أنه كان ينظر اليها. ومضى يقول:

«أعتقد أن هذا هو الوداع اذا.»

ومد يده نحوها، وترددت فى أن تمد يده اليه.

ولكنها استطاعت السيطرة على نفسها وهى تصافحه، وقد شعرت بدفء قبضته القوية يسرى الى أعلى ذراعها وخلال جسدها. وان كانت لم تخف الألم البارد الذى يخفق فى قلبها والذى جعل صدرها يحس كما لو كان على وشك أن ينفجر. وقالت فى رقة:

«وداعا ستيف..»

وأحست أن لفظ الوداع حكم قد صدر عليها بأن تعيش وحيدة طوال حياتها. وتمتم ستيف فى سخرية قبل أن يطلق يدها:

«أيتها العصفورة.. أيتها العصفورة.. طيرى وعودى الى وطنك البعيد. رحلة موفقة يا جولى.»

كان الضوء المنبعث من المنزل يجعل كل شئ فى الخارج يبدو أكثر قتامة. وبدت الأشجار كنسيج العنكبوت أمام أول نجوم بدأت تتلألأ. وبدا ستيف كشبح قاتم قبل أن يبتلعه الظلام ويختفى عن الانظار.

كان فى وسع جولى أن تعرف الآن لماذا لم يتحطم قلبها كليا. لقد تصورت أن ستيف سوف يصر على عدم تصديق قصتها الهزلية ليخبرها أنه يحبها لدرجة تجعلها تمتنع عن الرحيل. ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بأن قال لها: رحلة موفقة.

لقد كان سعيدا بذهابها. وأراد أن يصدق قصتها. وكان سعيدا كذلك عندما اعتبرته مغامرا رقيقا. كانت تلك هى الحقيقة، بغض النظر عن النتائج بالنسبة الى قلب تحطم. وارتعدت جولى وأحست فجأة ببرودة قاسية ومخيفة.. وبالوحدة والفزع.

١١-العودة إلى الوطن

لم تعد جولى الى مزرعة والديها بل اتجهت الى شقة خالتها بريجيت عند شلالات سيو. وبعد العناء الذى قاسته فى رحلتها الطويلة الى داكوتا الجنوبية حيث رفضت أن تسمح لحزنها بأن يعبر عن نفسه من أى منفذ، كان من الطبيعى لدى رؤية خالتها أن تطلق العنان لانفعالاتها ودموعها.

وتحملت خالتها بريجيت، بطبيعتها العملية، مسؤولية التصريح

بما لم تستطع جولى أن تصرح به. أنه كان من المستحيل بالنسبة اليها أن تعود لتعيش فى منزل أبويها. ولم تمض أيام قليلة حتى حصلت جولى على وظيفة مسؤولة عن التغذية فى مؤسسة خاصة للتمريض. وكان المرتب ضئيلا للغاية ولكنها لم تكن تهتم كثيرا بالنقود، فقد كانت بحاجة الى العمل لتشغل تلك الساعات المليئة بالذكريات المؤلمة.

وأصرت خالتها على أن تشغل جولى غرفة النوم الثانية فى الشقة، ولو لفترة محدودة، حتى تستطيع الاعتماد على نفسها عاطفيا وماديا. وكان من حسن حظ جولى أنها نزلت لدى خالتها بريجيت التى كانت تطمئن الى مأكلها وخروجها الى العمل فى الموعد المناسب، وكانت تتخذ القرارات التى لا تستطيع جولى أن تهتم بها.

وكان الأسبوع الأول فى بيت خالتها نموذجا سارت على منواله الأسابيع التالية، فكانت جولى تنهض فى الصباح وتذهب الى العمل وتعود الى البت وتتناول طعام العشاء الذى تعده بريجيت، وتعاون فى أعمال المطبخ وتقرأ أحد الكتب أو تشاهد التليفزيون ثم تذهب الى الفراش.

وعندما حانت أعياد الميلاد بذلت جولى أولى محاولاتها للمشاركة فى بهجة العيد لعلها تتخلص من العبء الذى جعل حياتها أشبه بالغيبوبة. وبذلت جهدا كبيرا لتختار الهدايا الملائمة

لكل عضو من أفراد الأسرة. وكانت أصعب الهدايا فى الاختيار هى هدية أبيها، فعندما كانت تدخل قسم الرجال فى أى محل تتخيل كيف يمكن أن يبدو ستيف فى أى من الأزياء.

وحرصت أيضاً الخالة بريجيت على ان تشجع فيها الحرص على الاحتفال بالعيد فأشركتها فى شراء مستلزمات من الزينة وان بدت تافهة فى السنوات السابقة. فقد كانت عادة تقضى العطلات المدرسية فى المزرعة. أما هذه السنة فقد قررت أن تقضيها فى الشقة مع بريجت اذ لم يكن لها سوى يوم عطلة واحد من العمل.

وكانت جولى فى كثير من الأحيان تبدو مبتهجة تماما ولكنها كانت أيضا تتبادل مع خالتها نظرة معينة تتبعها دائما تنهيدتان صامتتان. لم تكن لتخدع نفسها أو خالتها، فقد كان ستيف لا يزال يحتل المكان الوحيد فى قلبها.

كانت هناك حفلة ميلاد صغيرة للمرضى فى مؤسسة التمريض، وكان معظمهم من المسنين. وكانت جولى قد تطوعت للخدمة ساعات أطول وللمعاونة فى أعمال التنظيف. وراودها شعور متزايد بالاحباط عن ذى قبل وهى تحس بترانيم الميلاد تتردد فى أذنيها. ربما كان ذلك لأن كثيرين من المرضى كانوا بلا عائلات، أو أن عائلاتهم لم تكن راغبة فى ايوائهم. وزاد خوفها من المستقبل.

وعندما خطت جولى خارج بيت التمريض رفعت ياقة معطفها حول رقبتها لتحمى نفسها من برد الرياح الشمالية، وأحست بصوت الجليد يتشقق أسفل حذائها بينما كانت ذرات الثلج المتناثرة فى الهواء تنبئ بمزيد من الجليد قبل أن يحل الصباح. وربتت بيدها على لوحة أجهزة القياس التابلوه فى سيارتها الفولكس واغن بحب واعزاز عندما دار المحرك مع أول حركة من المفتاح. وكانت تحمد الله لقرب مسكنها من العمل فى مثل تلك لأجواء السيئة.

وبدأت أفكارها تشرد عائدة من جديد الى لويزيانا، والى ستيف، كعادتها عندما تتحرر من واجبات العمل. وكم تمنت أن يفعل الزمن فعله فيطفئ تلك الذكريات ولكنه لم يفعل. كان يكفيها أن تغمض عينيها لتحس من جديد بمشاعر الحب الجارفة التى تكنها لستيف. وعند ذاك فان نبضها السريع فى دقاته، وقلبها المتألم فى خفقانه، يسخران من أمانيها السخية فى أن تنسى.

وأوقفت السيارة أمام الشقة الكائنة فى الدور الأرضى. واصطنعت فى حزم ابتسامة على وجهها قبل أن تعدو الى المبنى. كانت هذه لعبة تعودت أن تلعبها لترفع من روحها المعنوية المنهارة وربما عادت اليها جذوتها الطبيعية فى يوم من الأيام، وكان ذلك ما أوحى اليها به تفكيرها.

وصاحت فى مرح وهى تغلق باب الشقة خلفها وتقفله بالمفتاح قبل أن تخلع معطفها وتعلقه على المشجب فى الصالة:

«أنا فقط.. أعتقد أن الجو سيكون فى الخارج عاصفا الليلة.»

وأخذت تدلك ذراعيها بقوة لتؤكد ما قالته وهى تخطو من الردهة الصغيرة الى حجرة المعيشة. كانت خالتها تجلس على كرسيها المفضل بجانب الباب مباشرة وعيناها البنيتان تلمعان فى عبث باتجاه جولى:

«هذا هو وقت عودتك تقريبا. هناك زائر ينتظرك.»

كانت حجرة المعيشة تمتد على يمين جولى. وتتبعت عيناها المتسائلتان نظرة خالتها التى تحدق فى ذلك الاتجاه. وكان ستيف يقف قرب مائدة صغيرة يحمل فى يده منظرا من مناظر عيد الميلاد حصل عليه اخيرا. كان يرتدى بلوفر ذو حواش بيضاء فوق بنطلون من الجلد بنى اللون. ولكن عينى جولى انجذبتا الى عينيه الزرقاوين، وأسرتا الى أعماقها. وشحب لون وجهها. لقد كا ستيف أكثر وسامة مما تصورته. وسألته فى خشونة وهى لا تدرى أن خالتها قد خرجت فى هدوء من الحجرة.

«ماذا تفعل هنا؟»

وأجاب ستيف فى هدوء بصوته المتهدج بعدما خطا خطوة نحوها:

«لقد جئت لأراك.»

«أخرج من هنا.. لا أريد أن أراك.»

وامتدت يدها الى حلقها لتخنق العبرات الواضحة. وواصل فى تصميم قائلا:

«لدى ما أريد أن أقوله لك.»

واستدارت فى سرعة وهى تقول:

«لا أريد أن أسمع.»

وكانت على وشك أن تهرب الى حجرتها لولا أن يديه أوقفتاها. ووجدت نفسها عاجزة عن المقاومة. وتمتم فى أذنها:

«سأقول وليكن ما يكون.»

كان العطر المنبعث منها يمتزج مع عطره المخدر وأضاف:

«واذا أصررت على أن أخرج بعد أن أقولها.. فسوف أخرج.»

وأغلقت جولى عينيها باحكام، وهى لا تحتمل اقترابه منها وقالت فى ألم وحسم:

«أرجوك يا ستيف.. دعنى أذهب. لم يعد للكلام معنى بعد الآن.»

فقال بدون تردد:

«حتى لو قلت أننى أحبك.»

ثم تابع:

«لم يكن فى نيتى على الاطلاق أن أقع فى حبك، بل يعلم الله أننى حاولت أن أتجنب هذا الحب بل حاولت أن أنساك. ولكن صورتك كانت تطاردنى حتى قبل أن تتركى لويزيانا. وكل ما قلته عن عدم الزواج وعدم الايمان بالحب كنت أحدث به نفسى. لقد كنت رجلا كثير الاحتجاج.»

وغمرتها أمواج من النشوة ولكنها رفضت أن تستسلم لها. لقد جربت مثل ذلك كثيرا فى الشهور الأخيرة، وعاشت ذكريات عديدة مؤلمة. حتى عندما كان قلبها يحبه كان عقلها يقاوم ذلك بشدة.

وسألته:

«حتى عندما أخذت كلودين معك الى نيوأورليانز؟»

ودون أن ينظر الى وجهها قال:

«كنت أعرف أنك اعتقدت أننى فعلت ذلك، وربما حرصت أنا على أن تعلمى به. لقد طلبتنى وطلبت منى أن آخذها معى. ولكننى أقسم لك أن كلا منا كان يقيم فى فندق مستقل. أما ذلك القميص الملون الذى تحدثت عنه فقد أخذته من أحد محلات التنظيف يوم بارحنا نيوأورليانز وتركته فى السيارة.»

«لماذا لم تقل لى ذلك.»

«كنت على استعداد لسوء التفسير، وكنت تريدين أن تجعلينى أصدق أننى مجرد خيال عابر فى حياتك. غرام مؤقت لا أثر له على وجه سفينة.»

واعترفت جولى فى شئ من الحياء:

«لم يكن أبدا كذلك.»

وألح عليها وقد عادت الضراوة الى عينيه:

«هل أنت متأكدة يا جولى؟ متأكدة تماما؟! لأن هذه الاشهر الأخيرة التى قضيتها من دونك كانت جحيما بالنسبة الى.»

كان شعورها هو شعور من يعود الى وطنه بعد غياب طويل. ولم يعد هناك مكان للكلام.

وجاء صوت الخالة بريجيت من الخارج يقول:

«هل أترك لكما بضع دقائق أم أدخل على الفور؟»

ورد ستيف:

«أدخلى أن ابنة شقيقتك تتصرف فى شئ من البهجة. أعتقد أنها فى حاجة شديدة الى رقيبة.»

وعلقت الخالة بريجيت فى شى من الرضى والسعادة قائلة:

«الأفضل أن تقول انها بحاجة الى وصيفة شرف.»

نظر الى جولى وهو يقول:

«فكرى فى هذا الأمر ايتها العصفورة الصغيرة.»

وأضاف:

«سواء قلت لك ذلك من قبل أم لم أقله، فسوف نتزوج فور حصولنا على الموافقة الرسمية، وايجاد كاهن يتم اجراءات الزواج. ان كاميرون هول بحاجة الى جولى انطوانيت كاميرون أخرى لتكون سيدة القصر. كما أن سيد القصر أيضا بحاجة اليها.»

وحدقت جولى بحب كبير فى وجهه، وقالت:

«لقد كان ذلك عرض زواج فى وجود شاهد يا سيد كاميرون وأمام الشاهد نفسه أعلن قبولى.»

وابتسمت خالتها وقالت:

«لا أعتقد أن ستيف كان ينوى أن يترك لك الفرصة للاختيار. ليس لدى ما أقدمه فى هذه المناسبة الا شراب الكاكاو.»

وعلقت جولى:

«هل أقدم المساعدة؟»

ورفضت ذلك خالتها بحزم.

وقال ستيف موجها الكلام الى خالتها:

«قبل أن أنسى لقد أخبرتنى جولى أنك المسؤولة عن تمكنها من القيام بالرحلة الى لويزيانا. وأريد أن أقدم لك الشكر على ذلك من كلينا. واذا لم يكن لدى جولى اعتراض فسوف نسمى ابنتنا الأولى باسمك.»

ولمعت عينا المرأة العجوز بالدموع وقالت:

«هذا فقط اذا كنت سأحضر حفل تعميدها.»

وعلقت جولى:

«هذا قرار لن يتم إغفال تنفيذه يا خالتى.»

وتركت خالتها الغرفة على عجل وهى تقول:

«حسنا.. من الأفضل أن أسرع بتحضير الكاكاو.»

وحدق ستيف اليها بشعور دافئ يكاد لا يصدق وقال:

«هل ضايقك هذا؟»

وغطت وجنتيها حمرة الخجل، وهى تقول:

«لقد كان شيئا رائعا. ومع ذلك يمكن أن يكون لنا أولاد كذلك.»

«سنظل نحاول حتى نحصل على ما نريد. وفى هذه اللحظة لا يهمنى أن يكون لى طفلان أو عشرة أطفال أو حتى عشرون طفلا. أن كل ما أريده هو أنت. أما أى شئ آخر فيكون بمثابة منحة، ولو أننى أعتقد أن ولدا واحدا وبنتا واحدة شئ عظيم.»

قالت لاهثة وهى تحدق فى وجهه تخشى ألا تراه ثانية:

«أوه ستيف.. أننى أحبك كثيرا.»

وهمس هو الآخر قائلا:

«وأنا أحبك.»